

عباس آل حميد

المنظومة الفكرية الإسلامية

من مشروع نظرية النشأة الإسلامية

♦ الرؤية الكونية والأساس الرؤيوي للمشروع ♦

المنظومة الفكرية الإسلامية



من مشروع نظرية النشأة الإسلامية



المنظومة الفكرية الإسلامية

الرؤية الكونية والأساس الرؤيوي للمشروع

عباس آل حميد

طبعة منقحة — 2026

مشروع نظرية النشأة الإسلامية

حقوق النشر والبيانات

حقوق النشر والملكية الفكرية محفوظة لعباس علي محمود، المعروف أدبياً باسم عباس آل حميد © 2026.

يُسمح بالاعتباس الموجز لأغراض البحث والمراجعة والتعليم، مع إثبات اسم المؤلف وعنوان الكتاب والمصدر. ويُسمح بتداول النسخة الإلكترونية الرسمية الكاملة غير المعدلة لأغراض غير تجارية وفق سياسة الإتاحة المبينة في هذا الكتاب. ولا يجوز تعديل الكتاب أو اختصاره أو ترجمته أو دمجها في إصدار آخر أو استغلاله تجارياً، كلياً أو جزئياً، من دون إذن مكتوب.

الطبعة أو صفة الإصدار: طبعة منقحة ضمن مشروع نظرية النشأة الإسلامية، 2026

سنة ومكان النشر: 2026 — مسقط، سلطنة عُمان

البصمة الناشئة: مشروع نظرية النشأة الإسلامية

ردمك (ISBN): 978-99992-2-557-1

المكتبة الإلكترونية: المكتبة الإلكترونية الرسمية

التصويبات والملاحظات: عبر صفحة المكتبة أو نموذج التواصل في الموقع الرسمي

للاستشهاد بهذا الكتاب

آل حميد، عباس. المنظومة الفكرية الإسلامية. طبعة منقحة ضمن مشروع نظرية النشأة الإسلامية. مسقط، سلطنة عُمان: مشروع نظرية النشأة الإسلامية، 2026.

من مشروع نظرية النشأة الإسلامية

نظرية النشأة الإسلامية مشروع فكري تفسيري داخل الرؤية الإسلامية، يدرس تكون الإنسان وحركته الوجودية ونموه وسلوكه ورسالته. وهو اجتهاد بشري لا يساوي الإسلام نفسه، ولا يحل محل العقيدة أو الفقه أو التفسير أو العلوم المتخصصة. وهو ليس كتاباً واحداً، بل منظومة من ستة كتب، لكل واحد منها سؤاله ووظيفته ونبرته، ويكمل بعضها بعضاً من غير أن يكرر أحدها وظيفة الآخر.

خريطة الكتب الستة

① «المنظومة الفكرية الإسلامية» – الأساس الرؤيوي وموضع الشرح الكوني.

② «نظرية النشأة الإسلامية» – المتن المرجعي الضابط.

③ «الذات الخالدة» – يتوسع في النفس الإنسانية وتكوّنها ومسارها.

④ «لا حدود» – يقرب القوانين إلى التطبيق ويحاور نظريات النمو المعاصرة.

⑤ «عِش سعيداً» – منفذ التدبير والمعيشة.

⑥ «رحلة كادح» – منفذ التجسيد السردية.

ويضم كتاب «نظرية النشأة الإسلامية» في مطالعه دليلاً موجزاً إلى المشروع وكتبه ومسارات قراءته، وفي آخره معجماً مرجعياً مبسطاً لمصطلحاته. وهما جزءان خادمان للمتن المرجعي نفسه، وليساً مجلداً مستقلاً عنه ولا كتاباً سابعاً داخل منظومة الكتب الستة.

موقع هذا الكتاب في المشروع

يقدم هذا الكتاب الرؤية الكونية الإسلامية التي تنطلق منها نظرية النشأة الإسلامية، من خلال بيان حقيقة الوجود، وعلاقة الإنسان بربه، وغاية الحياة، وسننها الكبرى. وهو الكتاب الذي يشرح الأساس الرؤيوي، ويمد بقية كتب المشروع بأرضها الكونية والاعتقادية من غير أن يحل محل المتن المرجعي الضابط.

مما قيل في الكتاب

مختارات من تقديم الكتاب وشهادات عن نسخته الأولى

الدكتور سالم بن سعيد البوسعيدي

من تقديم الكتاب



«من الكتب ما يدهش عقلك... لكنك تشعر بعده بجفاف روحي عميق، ومن الكتب ما يلامس روحك... لكنك تشعر بخواء فكري بأثر بعده، لكن لا شيء يبهج النفس مثل كتاب يغذي العقل والروح معاً... الكتاب حقاً مدهش في محتواه وإخراجه ولغته... جدير بحق أن يكون في مكتبة كل بيت.»



الشيخ خالد الملا، رئيس جماعة علماء العراق



«كتاب بمستوى عالٍ جداً ومتميز، والذي جعله متميزاً أنه يأخذ البعد الإسلامي ومنهجه السماوي... من خلال هذه الأطروحات بالغة الأهمية في زمانها ومكانها.»

السيد منير الخباز



«فوجدته كُتّاباً رائعاً أبرز من خلاله الوحدة الجوهرية بين التشيع والإسلام، وأظهر ثبات أصوله ودعائمه وعظمة مبادئه وقيمه... فسطع الكتاب هالة من النور القرآني، وانتظم عقداً جميلاً من الهدي النبوي.»

الدكتور محمد سليم العوا



«اطلعت على الكتاب فأسعدني دقة معلوماته وإيجازه.»

الشيخ حيدر حب الله



«يحاول الباحث الأستاذ عباس آل حميد أن يضع لنا رؤية مركزة تطل على بناء وعي ديني ناخض للأجيال القادمة، فيربط لها بين مكونات المنظومة الدينية... لفهم الدين بوصفه بناءً متكاملًا دون اقتطاع جزئياته للتعامل معها مبتورة عن سياقاتها المنظومية.»

الشيخ بدر بن سالم بن حمدان العبري



«اطلعت على الكتاب فوجدته وحدوياً يدعو إلى المشترك في الأمة وإلى صناعة الإنسان... وهو مترابط ومنهجي. قدّم الكاتب مادة منهجية معاصرة لصورة الدين الإسلامي إلى الناشئة، والمتلقي يحمل بعدين: الإنسان وبناء الحضارة.»

الشيخ حسن موسى الصفار



«فوجدته وافياً بالغاية التي وضع من أجلها كمنهج تدريس ديني تأسيسي، وبحق إنه يمثل استجابة رائعة لحاجة الساحة الدينية لوجود مناهج تقدم الفكر الديني كمنظومة متكاملة مترابطة بلغة علمية واضحة وأسلوب عصري جذاب.»

الحبيب سالم المشهور



«إن هذا الكتاب يسد فراغاً كبيراً في الساحة التربوية... يجمع بين التربية العاطفية والعقلية، وهو بهذا يشكل منهجاً متكاملًا... يصلح للجيل الجديد الذي يعيش ثورة معرفية كبرى.»

الشيخ علي الدهنين



«تميز بالأسلوب الأكاديمي الذي يستهوي الشريحة المخاطبة به، واللغة البسيطة السلسة المستخدمة في عموم الكتاب، والتدرج في البيان أثناء الانتقال من فكرة إلى أخرى، ودعم الفكرة بأمثلة من واقع الحياة.»

الشيخ عبد الكريم الحائري



«وجدته منتظماً مرتباً كعقد الدرر بترتيب الفكر، وقد جعله نيراً مباركاً بالآيات والروايات... وأضاف إليها ما يحتاجه أهل العصر من أقوال الفلاسفة والمفكرين وأهل الأديان... فكان الأسلوب ممتازاً عصرياً.»

الشيخ شفيق جرادي



«محاولة موفقة، فالصياغة جميلة جداً، وهدف المنهج واضح ومهم، وأسلوبه منسجم جداً مع الهدف المحدد من المنهج. أرجو الله أن يكون سبيلاً لوعي هذا الجيل المسلم بهويته وموقعه الحضاري.»

المحتويات

القسم الأول الوجهة الاستراتيجية الإسلامية

- 13 قصة الحياة... خلاصة المنظومة الفكرية الإسلامية
- 14 استراتيجية الخلق
- 20

القسم الثاني العقيدة الإسلامية

- 26 كيف نهتدي إلى الحقيقة؟
- 27 الله جلّ جلاله
- 31 الإنسان... عبد مستخلف في الأرض: تكريم ومسؤولية
- 36 ماذا يعني القرب من الله؟
- 40 القوانين والسنن الكونية
- 47 مسيرة الحياة
- 54 الجزء الآخر
- 59 اللطف والرحمة الإلهيان
- 64 الشريعة الإسلامية
- 69 النبوة
- 74 لماذا البلاء؟
- 77 لماذا الشيطان؟
- 81

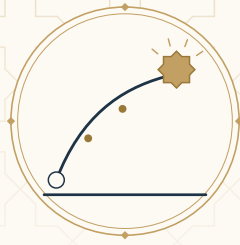
85	القسم الثالث الممارسات الإسلامية
86	ما هدفك في الحياة؟
92	الواقعية في الحياة
98	السير إلى الله
107	مبادئ السير إلى الله
116	طلب المعرفة
119	معرفة النفس: مراقبة ومحاسبة وتزكية
129	تنمية كمالنا وقدراتنا: أمانة للاستخلاف
135	المودة والافتداء بالنبي وأهل بيته (ع)
138	التواصل الاجتماعي
141	الإصلاح
145	العطاء والإيثار
149	الغرور والثقة بالنفس
157	العبادات
162	قراءة القرآن الكريم
166	ذكر الله عز وجل كثيراً
172	الدعاء
177	الأمل الإلهي ومآل الإصلاح: المهدي المنتظر (عج)
180	عاشوراء... الملمحة الإنسانية الخالدة
185	المصادر والمراجع



القسم الأول

الوجهة الاستراتيجية الإسلامية

من مشروع نظرية النشأة الإسلامية



القسم الأول

قصة الحياة... خلاصة المنظومة الفكرية الإسلامية

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

(الأنعام، 32).

ما قصة الحياة؟ من نحن؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نمضي؟ وما مساحة
اختيارنا في تشكيل حياتنا ومصيرنا؟

نتلخص قصة الحياة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة، 156).
فمن الله مبدأ وجودنا، وإليه رجوعنا؛ وحول هذه الحقيقة تنتظم المنظومة الفكرية الإسلامية.



﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: حول هذه الحقيقة تنتظم المنظومة الفكرية الإسلامية

ولأن الله سبحانه وتعالى كريمٌ فيّاض، خلق الكائنات وأمدّها بالوجود. وفي لغة الحكمة الإسلامية يُعبّر عن هذا العطاء بالفيض؛ فيتلقي كل موجود منه بحسب إمكانه وقابليته، وقد جعل الله لكل شيء قدراً: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر، 49).

وزاد الله في نعمته فجعل الوجود في حركة لا عث فيها، نتكشف عبرها قابليات المخلوقات وتوجه إلى ما خلقت له. وما نشهده من تحول الكائنات في أطوارها يقرب إلى أذهاننا جانباً من هذه الحركة، مع بقاء حقيقتها أوسع من

صورنا المحدودة: ﴿أَحْسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾
(المؤمنون، 115).

وتجري هذه الحركة بإرادة الله عبر أطوار الحياة المتعاقبة، من الدنيا إلى الآخرة، وضمن قوانين وسنن لا تستقل عنه ولا تتخلف عن حكمته: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر، 43).

وفي عالم الشهادة كرم الله الإنسان، وجعله موضع الاستخلاف والتكليف لما وهبه من إرادة وإدراك وقابلية لحمل الأمانة. وليس هذا التكريم استقلالاً عن الله ولا مركباً مطلقاً للإنسان، بل مسؤولية يقدرها الله بحسب ما بلغه من البيان وما كان في وسعه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر، 29).

وبحسب ما آتاه الله الإنسان وما كان في وسعه تتسع مسؤوليته وأمانته؛ أما عمق عبوديته فيتحدد بوجهة استجابته، ويُقرأ قربه أو بعده من تفاعل ما تحقق فيه من قوى وكالات مع هذه الاستجابة؛ فقد حمل أمانة عظيمة عرضت على السماوات والأرض والجبال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب، 72).

ولم يكن الله ليحمل الإنسان هذه الأمانة ثم يتركه سدى؛ بل هداه ولطف به وأعاناه على أداء مسؤوليته: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة، 36).

وتقرأ المنظومة الفطرة وميثاق الربوبية وعهد العبودية بوصفها معاني مترابطة تبين مرجع هذه الهداية ومقتضى الاستجابة لها. فالفطرة أصل في خلقه

الإنسان يتجه به إجمالاً إلى الحق والعبودية، والميثاق يشهد على ربوبية الله، والعهد يبين مقتضى ذلك في الحياة: عبادة الله واجتناب ما يصرف عنه. ولا يعني هذا أن الفطرة أو الميثاق يغنيان عن الوحي والتعلم، فمسؤولية الإنسان التفصيلية تبقى بقدر ما بلغه من بيان وما كان في وسعه.

ولهذا سخر الله للإنسان من سنن الكون وموجوداته ما يعينه على أداء أمانته والقيام بمسؤوليته والسير إليه، من غير أن يجعل هذا التسخير تفوقاً وجودياً مطلقاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجن، 13).

والقرب من الله عنوان غير مكاني لحركة الإنسان؛ ويُقرأ قربه أو بعده من تفاعل ما تحقق في نفسه من قوى وكالات مع وجهة استجابته للحق والعبودية، بحسب ما بلغه من بيان وما كان في وسعه. أما افتقاره الوجودي إلى الله وقيامه به فحقيقة عامة تشمل كل مخلوق، وليست منزلة مكتسبة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة، 10-11).

ومع ما سخره الله للإنسان من أسباب، يبقى مسؤولاً داخل وسعه عن الوجهة التي يسلكها: أيقرب إلى الله أم يبتعد عنه؟ ويتجلى ذلك في كدحه وعمله في الدنيا، وفي توجيه إرادته وحكمته وما أوتي من قدرات إلى الحق والخير: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات، 37-41).

وترتبط سعادتنا أو شقاؤنا بما نتكوّن عليه النفس وبوجهتها وما تصير إليه من قرب أو بعد، وتظهر حقائق الأعمال وآثارها في الآخرة بإظهار الله وحكمه؛ فلا يُختزل الجزاء في أثر ذاتي مستقل، ولا يُفصل عن عدله ورحمته ومغفرته

وشفاعة من أذن لهم: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ (الزلزلة، 6-8) .

ولخطورة الشقاء الذي قد يصيب الإنسان بابتعاده عن الله، من الله على البشرية بالهداية؛ فبعث الرسل، وأنزل الكتب والشرائع، وأقام الهداة ليعينوا طريقه. وختمت الرسائل بنبينا محمد (ص)، ونزل القرآن الكريم هدىً وتزكيةً وتعليمًا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة، 2) .

والإنسان لا يعيش بمعزل عن الكون والناس؛ فهو كائن اجتماعي يؤثر ويتأثر، وتتكوّن نفسه في معترك الحياة بتفاعل ما أعطيه من فطرة وبدن واستعداد، وما يلقاه من تربية وبيئة وتجربة وابتلاء، وما يعرفه ويحبه وينويه ويختاره، وما يفعله ويكرره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فُتْلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق، 6) .

ولأن الخير لا يكتمل داخل حدود الفرد، جعل الإسلام مساعدة الإنسان على التحرر من الظلم والفساد، والتواصي بالحق والصبر، مسؤوليةً مشتركةً بحسب الوسع والموقع: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿ (العصر، 1-3) .

غير أن مشاغل الحياة والشهوات والتحديات قد تصرف الإنسان عن هذه الوجهة وعن مسؤوليته: ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ (التكاثر، 1-2) .

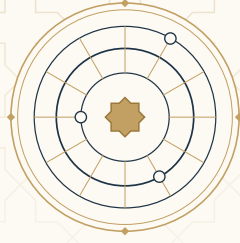
ومن هنا لم تكتفِ المنظومة الإسلامية بالإقرار النظري المجرد، بل شرع الله منظومة من العبادات والأخلاق والأحكام تربي الإنسان على المسؤولية تجاه

نفسه والعالم، وتصل العقيدة بالعمل اليومي. ومن ذلك الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومودة الرسول (ص) وأهل بيته (ع): ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر، 10)، و﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت، 45).



العقيدة لا تبقى فكرة مجردة، بل تمنح الإنسان وجهته وتنعكس في عبادته وعمله وعلاقاته





القسم الأول

استراتيجية الخلق

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا
خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الدخان، 38-39).

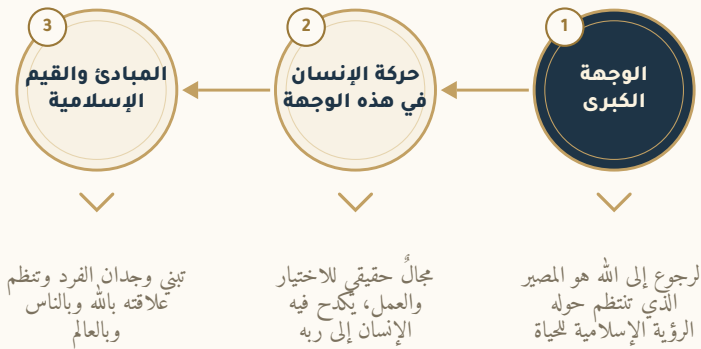
ينطلق الفهم الإسلامي لاستراتيجية الخلق من التوحيد؛ فالوجود ليس حركة بلا غاية، والعقيدة لا تبقى فكرة مجردة، بل تمنح الإنسان وجهته وتنعكس في عبادته وعمله وعلاقاته. ومن هنا يصل هذا الفصل بين ما نؤمن به والطريقة التي نعيش بها.

الوجهة الكبرى

لم يخلق الله السماوات والأرض وما بينهما عبثاً أو لهواً؛ فالخلق قائم بالحق، والوجود يجري في نظام يقوم على الحكمة والغاية. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا

السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴿٢٧﴾ (ص، 27)، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الدخان، 38-39).

وتكشف هذه الآيات أن حركة الإنسان لا تنتهي عند حدود الدنيا، بل تتجه إلى الرجوع إلى الله: ﴿أَحْسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ (المؤمنون، 115)، و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة، 156). فالرجوع إلى الله هو المصير الذي تنظم حوله الرؤية الإسلامية للحياة، أما القرب أو البعد فيحدد بما يتكوّن في الإنسان وبوجهة استجابته.



ينطلق الفهم الإسلامي لاستراتيجية الخلق من التوحيد؛ فالوجود ليس حركة بلا غاية

حركة الإنسان في هذه الوجهة

ولكن كيف تتحول هذه الوجهة إلى حركة في الحياة؟ وكيف يكون كدح الإنسان اليومي جزءًا من رجوعه إلى الله؟

يجيب القرآن بقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك، 2). فقد خلق الله الحياة في عالم تتجاور فيه القوة والضعف،

والخير والشر، واليسر والعسر، ليجد الإنسان مجالاً حقيقياً للاختيار والعمل. وفي هذا المجال يكدح إلى ربه، ويستجيب للهداية أو يعرض عنها، وتكون نفسه بما أعطيه وما يلقاه وما يختاره ويكره؛ فهو يشارك، بإرادته واختياراته، في تشكيل شاكلته وما يصير إليه ضمن ما أقدره الله عليه، بسبق خلق الله وهدايته ومدده لا باستقلال عنه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فُتْلَاقٍ﴾ (الانشقاق، 6).

وتظهر هذه الحركة في تحرير الإنسان من صور الظلم والفساد والجهل والعبودية لغير الله، وفي انتقاله من الظلمات إلى النور: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة، 257). فالتحرر هنا ليس شعاراً منفصلاً عن التكوّن، بل ثمرة معرفة وعمل ومجاهدة ومسؤولية.

ويشمل نمو الإنسان ما صار بالفعل كيفيةً في نفسه من علم وفهم وإرادة وملكات وقوى، وما تحقق فيها من حكمة وعدل ورحمة وشجاعة وصبر وصدق. أما القدرات الأولية فتوسّع مجال الفعل ما لم تتحول، بالممارسة، إلى ملكات راسخة في النفس؛ وتبقى الموارد والفرص والمال والمنصب والصحة البدنية اتساعاً أدواتياً. وتحدد الوجهة قيمة هذا الاتساع الأخلاقية؛ فقد يخدم الحق أو الباطل. أما السعادة والطمأنينة فن ثمار الاستقامة، والطمأنينة القرآنية مظهر متدرج للقرب؛ ولا تُختزل الغاية فيهما، ولا يصلح الهدوء الظاهر أو الشعور بالسعادة وحدهما للحكم على منزلة الإنسان عند الله.

ويبين السيد محمد باقر الصدر، في كتابه «خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء»، أن استخلاف الجماعة البشرية في الأرض يعني إقامة العلاقات الاجتماعية على العبودية لله، وتحرير الإنسان من الاستغلال والجهل والطاغوت، وحمل

مسؤولية عمارة الأرض بالحق. وبهذا يجتمع التشريف بالتكليف، ولا ينفصل موقع الإنسان في الأرض عن فقره الدائم إلى الله.

وحين وعى المسلمون جانباً من هذه الرسالة، نشأت في تاريخهم تجارب حضارية أسهمت في العلم والمعرفة والعمران وخدمة الناس. ولا تُقاس قيمة تلك التجارب بمجرد التفوق التاريخي، بل بقدر ما حوّلت الإيمان إلى علم وعمل وخدمة للناس: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران، 110).

المبادئ والقيم الإسلامية

وتتجسد هذه الرؤية في منظومة من المبادئ والقيم التي تبني وجدان الفرد وتنظم علاقته بالله وبالناس وبالعالم، ومن أهمها:

♦ العبودية لله وحده: هي الأصل الذي تنتظم حوله الرؤية والسلوك؛ والعبودية هي أن يكون الله رب الإنسان ومرجعه الأعلى وغاية سعيه، فتنتظم نيته وطاعته وحياته تحت رضاه؛ فلا يتحول إنسان أو سلطة أو رغبة إلى معبود يزاحم حق الله في القلب والحياة: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (يوسف، 40).

♦ الكرامة الإنسانية والرحمة: جاء الإسلام رحمةً للعالمين، وأقام كرامة الإنسان على أصل الخلق الواحد، وجعل معيار التفاضل التقوى والعمل الصالح، لا العرق أو المال أو النسب: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، 107)، و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، 13).

♦ الأخلاق والآداب الاجتماعية: لا تنفصل العقيدة عن طريقة معاملة الناس؛ فصدق الإيمان يظهر في العدل والرحمة والأمانة وحفظ الحقوق.

وقد ورد عن الرسول (ص): «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الشهادات).

♦ الواقعية ومراعاة الوسع: يخاطب التشريع الإنسان كما هو، ببدنه وحاجاته وحدوده، ويقدر المسؤولية داخل وسعه، ويرفع الحرج عند العجز والمشقة غير المعتادة: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة، 286).

♦ احترام العقل: يدعو القرآن إلى النظر والتفكر والاستدلال، ويجعل العقل طريقاً لفهم الآيات وتمييز الدعوى الصادقة من الزائفة، من غير أن يدعي العقل الإحاطة بما يتجاوز مجاله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ ثَمَنِ وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (سبأ، 46).

♦ النية والقصد: قيمة العمل لا تنفصل عن الوجهة التي تحركه؛ فالنية تمنح الفعل معناه الأخلاقي والعبادي، وتربط الظاهر بما يبينه الإنسان في داخله، لكنها لا تصحح وسيلةً باطلة ولا ترفع حقاً لازماً. وقد ورد: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» (صحيح البخاري، ح 1).

♦ حرية الاعتقاد ومسؤولية الاختيار: لا يقوم الإيمان على الإكراه، بل على البيان والنظر والاستجابة الحرة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة، 256). وهذه الحرية لا تلغي مسؤولية الإنسان عن طلب الحقيقة وما يختاره بعد قيام الحجة.

♦ الإيمان بالرسول والرسالات: يؤمن المسلمون بأن الأنبياء جميعاً دعاة إلى توحيد الله وهداية الإنسان، ويوقرونهم ولا يفرقون بينهم في أصل التصديق: ﴿لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة، 285). ويختص الإسلام بخاتمة رسالة النبي محمد (ص) وحفظ القرآن بوصفه الكتاب الخاتم.



المبادئ والقيم الإسلامية: العبودية لله وحده هي الأصل الذي تنتظم حوله الرؤية والسلوك

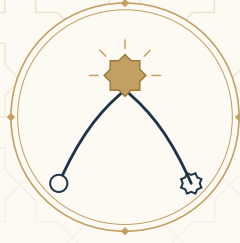




القسم الثاني

العقيدة الإسلامية

من مشروع نظرية النشأة الإسلامية



القسم الثاني

كيف نهتدي إلى الحقيقة؟

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ
أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

(الحج، 46).

العقل والوحي في طلب الحقيقة

يمكن لأي مدرسة فكرية أن ترفع رسالة جميلة للحياة، غير أن جمال العبارة لا يكفي وحده. فالسؤال الأعمق هو: من أي تصور للوجود والإنسان تنبع هذه الرسالة؟ وهل تنسجم مع ما يؤمن به الإنسان فعلاً، أم تبقى كلمات معلقة لا تسندها رؤية؟ من هنا تبدأ العقيدة

الإسلامية؛ فهي الجذر الذي يمنح الحياة معناها ويوجه السلوك والموقف.

تبحث العقيدة الإسلامية في مصدر الوجود، وعلاقة الإنسان بخالقه، وغاية الحياة، والسنن التي تحكم الحركة فيها، وما وراء الموت، ودور الوحي في هداية الإنسان. وليست هذه المسائل مقدمات نظرية بعيدة عن الواقع؛ لأن الإجابة عنها تتدخل في اختياراتنا اليومية، وفي معنى النجاح والخير والمسؤولية.

مجالات المعرفة وحدودها

إن السعي إلى معرفة الحقيقة والتعبد لله على بصيرة من أصول المنظومة الفكرية الإسلامية. ولهذا احتفى الإسلام بالعقل، ودعا إلى القراءة والتفكير وطلب الحكمة، وكانت أول كلمة نزلت من القرآن: ﴿اقْرَأْ﴾ (العلق، 1).

يعلمنا الله في كتابه الحكيم أن مهمة الأنبياء تعليم الناس وتزكيتهم: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، 151).

ويمكن التمييز بين دائرتين من الحقائق من حيث طريق الإنسان إلى معرفتها:

الدائرة الأولى هي الأصول العامة التي يستطيع العقل أن ينظر فيها، كدلالة الوجود على الخالق، والحاجة إلى الهداية، وإمكان النبوة، وبعض المبادئ الأخلاقية الكبرى. والرسول لا يعطلون العقل في هذه الدائرة، بل يوقظونه ويقيمون له الآيات، ولذلك تكرر في القرآن الأمر بالتفكير والنظر. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارٍ ثُمَّ تَنْفَكُوا﴾ (سبا، 46).

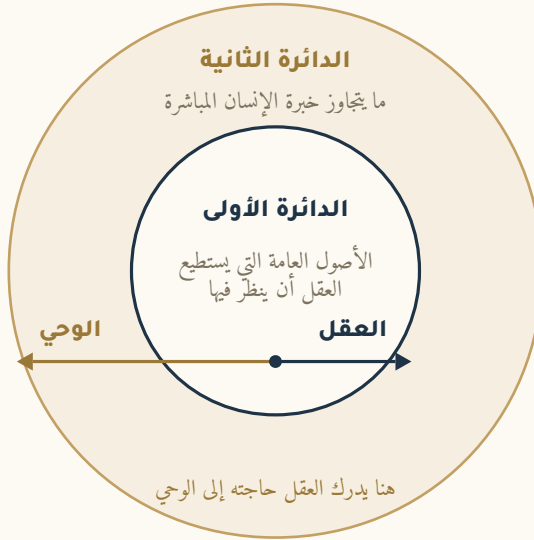
وعن الإمام علي (ع): «التفكر في ملكوت السماوات والأرض عبادة المخلصين» (غرر الحكم ودرر الكلم، ح 1792).

والدائرة الثانية هي ما يتجاوز خبرة الإنسان المباشرة، كتفاصيل الغيب والمعاد وكثير من حدود التشريع. هنا يدرك العقل حاجته إلى الوحي؛ لأنه لا يملك وحده إحاطةً بالعالم التي لم يشهدها، ولا بجميع آثار الفعل في الدنيا والآخرة.

وهذا لا يجعل الأحكام منفصلة عن الحكمة، ولا يعفي الإنسان من السؤال والفهم؛ لكنه يضع السؤال في حدوده الصحيحة. فقد يهتدي العقل إلى بعض الحكم والمصالح، من غير أن يدعي الإحاطة بكل ما قام عليه الحكم أو بكل ما يترتب عليه.

وهكذا لا يقف العقل في مقابل الوحي؛ فبالعقل نبحث عن صدق الرسالة، ونفهم النصوص ونزن دلائلها، وبالوحي نتلقى ما لا تستقل التجربة البشرية بإدراكه. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء، 15).

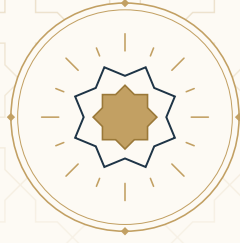
ولهذا لا يصح أن تُبنى العقيدة على كل أمر خارق للعادة، ولا أن يصبح الانبهار بظاهرة غامضة بديلاً عن النظر والتحقيق. فالمعجزة آية يجريها الله لتأييد رسله، أما الادعاءات غير المنضبطة فقد تفتح الباب للخداع والاستغلال. والعقل هنا حارس للإيمان، لا خصم له.



دائرتان من الحقائق من حيث طريق الإنسان إلى معرفتها

ويعرض القرآن نموذجاً لطلب الخوارق على سبيل التعنت، حين لا يكون المطلوب معرفة الحق بل فرض شروط متتابعة على الرسول. عندئذ يرد القرآن الإنسان إلى حقيقة الرسالة وإلى مسؤوليته في النظر، لا إلى مطاردة المشهد المدهش في ذاته: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء، 93).





القسم الثاني

الله جلّ جلاله

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(النور، 35).

تتمحور العقيدة الإسلامية حول التوحيد الخالص لله جلّ جلاله؛ ففنه المبدأ وإليه المعاد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة، 156). فالله خالق كل شيء، الغني عما سواه، المنزه عن الحد والنقص والمماثلة. وتعبّر الحكمة الإسلامية، ولا سيما الحكمة المتعالية، عن بعض جوانب هذا الأصل بمصطلحي «واجب الوجود» و«صرف الوجود». وهما صياغتان فلسفيتان تخدمان البيان، وليستا الطريق الوحيد للتعبير عن التوحيد (انظر: صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج 1، السفر الأول).



تتمحور العقيدة الإسلامية حول التوحيد الخالص لله جلّ جلاله: فمنه المبدأ وإليه المعاد

وبيان ذلك أن الموجود إذا اتصف بصفة عرضية سألنا عن مصدرها، أما ما كان لازماً لحقيقته فلا يُطلب له سبب منفصل عنها. فإذا وجدت قطعة حديد ساخنة سألت عن مصدر حرارتها، لكنك لا تسأل لماذا يشغل الجسم حيزاً؛ فالامتداد من لوازم الجسمية.

وجود الكائنات الممكنة ليس واجباً بذاته؛ فهي مفتقرة في أصل وجودها وبقائها. ويقود النظر في هذا الافتقار إلى «واجب الوجود»، الذي لا يستمد وجوده من غيره ولا يفتقر في تحققه إلى علة.

فالله واجب الوجود؛ لا يوجد على نحو وجود الكائنات الممكنة المحدودة. ويعبر الحكماء عن صدور الوجود عن عطائه بالفيض، ويقرّبونه بمثال صدور النور من الشمس، مع بقاء المثال قاصراً عن حقيقة الخالق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر، 15).

وبعبارة أخرى، يميّز الحكماء في الموجود الممكن بين ماهيته ووجوده: فكونك إنساناً يجيب عن سؤال «ما أنت؟»، وتحقيقك في الخارج يجيب عن سؤال «هل أنت موجود؟». وهذا تمييز عقلي، لا فصل بين شيئين قائمين مستقلين في الخارج.

وهذا شأن الموجودات الممكنة، أما الله جلّ جلاله فلا تركيب فيه من ماهية محتاجة ووجود زائد عليها، ولا يفتقر إلى ما يمنحه الوجود.

ولأن واجب الوجود لا يفتقر إلى غيره، فلا يحده نقص أو قيد؛ فالحد يكشف عن جهة افتقار أو إمكان، وهما منفيان عنه. ولهذا كان سبحانه غير محدود على الإطلاق.

ومن هنا يعبر الحكماء عن وجوده الواحد البسيط، غير المركب، والمطلق الذي لا يخالطه نقص، بقولهم: «صرف الوجود»؛ وهو اصطلاح فلسفي يقصد به التنزيه عن الحد والتركيب، لا إضافة أصل عقدي آخر.

ولهذا لا يحيط بالله تصور، فضلاً عن أن تدركه الأبصار؛ إذ ليس له حد أو قيد نصوغه في صورة ذهنية. قال الإمام علي (ع): «الْحَمْدُ لِلَّهِ... الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بَعْدُ الْهَمَمِ، وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطْنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مُحَدَدٌ، وَلَا نَعَتْ مُوجُودٌ» (نهج البلاغة، الخطبة الأولى).

وهذا يبين اتصاف الله بصفات الكمال وتنزهه عن النقص، وأن صفاته ليست أجزاءً زائدة على ذاته؛ فقد رتبته وحكمته وسمعه وبصره قائمة بذاته البسيطة الواحدة. قال الإمام علي (ع): «وَكَمَّالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمُوصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مُوصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ» (نهج البلاغة، الخطبة الأولى).

ومن هذا البيان يستدل الحكماء أيضًا على استحالة تعدد واجب الوجود؛ لأن التعدد يقتضي تميزاً وحداً، وما كان محدوداً لم يكن واجب الوجود المطلق.

فلو فرض واجبان مستقلان، لكان كل واحد منهما محدوداً بما يميزه عن الآخر، وقابلاً لأن يُتصور من خلال حدوده؛ فيعود كل منهما ممكناً محدوداً، لا واجب الوجود الذي لا يحده شيء.

ولا تحدّ المخلوقات الله جلّ جلاله؛ فهي قائمة به ومفتقرة إليه، ولا يكون المخلوق المفتقر إلى الله حدّاً لوجوده سبحانه.

وتؤكد آيات القرآن والأحاديث أن الله لا يحده مكان، وأن الموجودات قائمة به في كل آن. ونحن موجودون وجوداً حقيقياً مخلوقاً، قائماً بعباء الله، وتظهر في وجودنا آثار قدرته. ويقرب الحكماء ذلك بالنور الذي هو أثر للشمس من غير أن يكون هو الشمس: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَهُوَ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة، 115).

ولتقريب الصورة، فكر في العلاقة بينك وبين صورة ذهنية تستحضرها لمنظر جميل. أنت أوجدت هذه الصورة في ذهنك، ولها تحققها في مرتبتها، لكنها قائمة بك ولا تستقل عنك.

وانظر إلى ضعف وجود هذه الصورة بإزاء وجودك؛ فهي تحت تصرفك، تظهر حين تستحضرها وتغيب حين تصرف ذهنك عنها، ولا تملك لنفسها بقاءً مستقلاً.

ومع الفارق الذي لا يحيط به قياس، تقرّب هذه الصورة افتقارنا إلى الله: نحن موجودات حقيقية، لكننا قائمون به من كل جهة من جهات وجودنا، وهو يملكنا ملكاً تاماً. قال الإمام علي (ع) عن الله: «داخل في الأشياء لا كشيء داخل في شيء، وخارج من الأشياء لا كشيء خارج من شيء؛ سبحانه من هو هكذا ولا هكذا غيره» (الكليني، الكافي، ج 1، كتاب التوحيد، باب أنه لا يعرف إلا به).

ويُسمّى هذا من جهة المخلوق الافتقار الوجودي: قيامه بالله واحتياجه إليه وعدم استقلاله، مع ثبوت وجوده وفاعليته الحقيقيين في مرتبته. ويقابله من جهة الله معنى القيومية: قيامه بذاته، وإقامته لخلقه وحفظه لهم في أصل وجودهم وبقائهم وقدرتهم، مع غناه المطلق عنهم. فالقيومية ليست حلولاً أو مكاناً، والافتقار الوجودي ليس عجزاً نفسياً ولا منزلةً يكتسبها الإنسان.





القسم الثاني

الإنسان... عبد مستخلف في الأرض: تكريم ومسؤولية

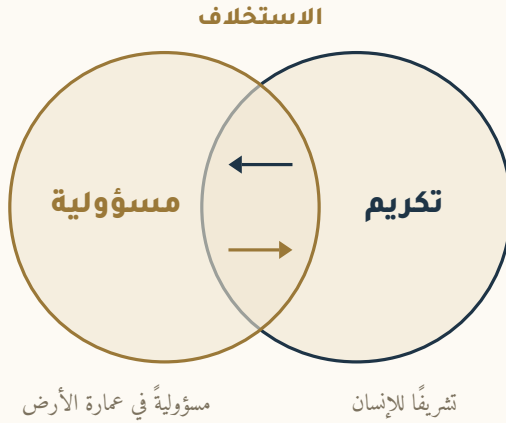
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ

سَاجِدِينَ﴾

(الحجر، 28-29).

الاستخلاف أمانة وتكليف نوعي عام للإنسان في الأرض، وهو تكريم ومسؤولية معاً. أما تحقيقه الكلي والأخلاقي فيتدرج بحسب وفاء الإنسان بالعبودية والعدل والأمانة وعمارة الأرض. فلا يمنحه الاستخلاف

استقلالاً عن الله، ولا يجعله مركز الوجود، بل يحمله أمانةً داخل نظام الله وسننه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة، 30) •



الاستخلاف أمانة وتكليف نوعي عام للإنسان في الأرض، وهو تكريم ومسؤولية معاً

ويعني استخلاف الإنسان في الأرض أن يجسّد عبوديته لله في عمارتها وأداء حقوقها، وأن تنضبط تصوراتته وحركاته وسكاته بما يرتضيه الله وبما يهديه إليه المنهج الإسلامي.

فالأرض هي الميدان الذي يجسّد فيه الإنسان عبوديته لله، ويؤدي أمانة الاستخلاف من خلال عمارتها والكبح فيها طلباً للرزق والأمان والخير ضمن هداية الإسلام. ويدخل العمل المشروع في العبادة بمعناها العام حين تصح النية والغاية والوسيلة، وتُحفظ الحقوق، ولا يزاحم واجباً؛ فلا يتحول كل مباح

إلى عبادة تلقائياً. ومن خلال هذا التجسيد تنمو النفس: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الجمعة، 10).

وكما تبين في فصل «استراتيجية الخلق»، فإن للخلق غاية واضحة، وقد بين الله للإنسان وجهته والأمانة التي يحملها، وأمره أن يسعى إليه بكل ما أوتي من قوة. فالإنسان عبد مكلف بأداء نصيبه من الأمانة داخل النظام الذي أقامه الله؛ يفرّ إليه سبحانه، ويتسابق في القرب منه، ويتنافس في الخير: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (الذاريات، 50).

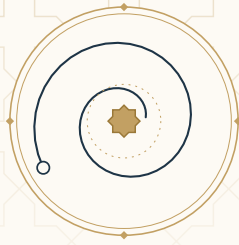
وتجري هذه الأمانة في عالم من التنوع والاختبار؛ فقد خلق الله الناس من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وفاوت بينهم في القدرات والأرزاق ليلوهم فيما آتاهم. والإنسان نفس واحدة، يظهر عملها في نشأتها الدنيوية من جهات متداخلة: الجسد، والقلب، والعقل، والروح. وهذه ليست أجزاءً أو جواهر مستقلة، بل جهات نقرأ بها عمل النفس الواحدة. وقد وهبه الله أصل الاختيار، فتتحول اختلافات الحياة وتحدياتها إلى ميدان للعمل والنمو والقرب من الله.

ولذلك سخر الله لنا من الكون ما يعيننا على أداء الأمانة، وجعل ما على الأرض زينةً وابتلاءً، ثم أمرنا بالسعي فيها والأخذ من رزقه؛ لنحقق عبوديتنا، ونؤدي أمانة الاستخلاف، ونسير إليه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك، 15).

ويعرض السيد محمد باقر الصدر، في كتابه «خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء»، الاستخلاف بوصفه تشريعاً للإنسان ومسؤوليةً في عمارة الأرض؛ وهو تشريف لا ينفصل عن العبودية والأمانة.

وفي هذا المعنى يكون النمو الحقيقي أن يعمل الإنسان، وهو يؤدي أمانة الاستخلاف، على تجسيد ما يقع في وسعه من العدل والعلم والرحمة ومقاومة الظلم، مع بقاء افتقاره الوجودي إلى الله وعبوديته له. ولا يتحقق الاستخلاف بحجم الإنجاز أو النفوذ وحدهما، بل بقدر صدق العبودية والعدل والأمانة وطريقة استعمال القدرة. وبقدر ما يحسن الإنسان عمارة الأرض وخدمة الخلق، ويخلص في ذلك لله، يؤدي نصيبه من المسؤولية ويتقدم في مسيرته إليه.





القسم الثاني

ماذا يعني القرب من الله؟

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾

(الواقعة، 10-11).

بيناً في فصل «استراتيجية الخلق» أن القرب من الله هو الغاية الكبرى التي تمنح حركة الإنسان معناها. ولكن ماذا يعني هذا القرب؟

القرب من الله عنوان غير مكاني لحركة الإنسان؛ فالله لا تحيط به المسافات. ويُقرأ قرب الإنسان أو بعده من تفاعل ما تحقق في نفسه من قوى وكالات وجودية مع وجهة استجابته للحق والعبودية، لا من أحدهما منفرداً. أما قيومية الله وافتقار الإنسان الوجودي إليه فحقيقتان عامتان تَشْمَلان الجميع، ولا تمثلان وحدهما منزلة مكتسبة.

والعبودية هي الوجهة الواعية المختارة: أن يكون الله رب الإنسان ومرجعه الأعلى وغاية سعيه، فتنتظم نيته وطاعته وحياته تحت رضاه. وقرب العبودية هو رسوخ هذه الوجهة وتعمقها في معرفة الله ومحبته وقصده وطاعته وتسليمه. وكلما ترسخت حررت الإنسان من الخوف الذي يشل إرادته، ومن الشهوة التي تقوده، ومن التعلق الذي يحجبه عن الحق، بل من عبوديته لأننا أنفسها؛ فلا يعني ذلك ألا يتأثر بشيء، بل ألا يملك شيء قلبه أو يصرفه عن ربه.

وتقرب الآية هذا المعنى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة، 257). والله هو نور السماوات والأرض.

وترد في المناجاة الشعبانية المروية عن الإمام علي (ع) عبارة: «إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك» (المناجاة الشعبانية، في إقبال الأعمال). والانقطاع إلى الله هو أن يزداد القلب اجتماعاً عليه بقدر تحرره من التعلق الاستقلالي بغيره، فيرى الأشخاص والأسباب والنعم وسائل قائمة بالله لا مصادر مستقلة عنه. فهو قلب مجموع على الله، وعمل مسؤول في العالم.

فالغاية ليست أن تعيش هذا الانقطاع في خلوة وحدها، بل أن تحمله معك وسط الناس والعمل والأسرة وتحديات الحياة. تتفاعل مع الواقع، وتأخذ بالأسباب، وتؤدي واجبك؛ لكن قلبك يبقى متوجهاً إلى الله، فلا تعزلك العبادة عن الحياة ولا تبتلع الحياة عبادتك.

وتكشف مواقف التكليف الحاسمة كيف تتجسد العبودية في فعل يحفظ الحق ويؤدي المسؤولية. فالشعائر عبادات خاصة بصورها الشرعية وقصد القربة،

وسائر العمل المشروع قد يدخل في العبادة بمعناها العام حين تصح النية والغاية والوسيلة وتُحفظ الحقوق.

ولا يعني ذلك التقليل من الصلاة أو الصوم؛ فالعبادة أولاً حق لله وامتنال له، والشعيرة الخاشعة تؤدي في صورتها الشرعية، والعمل الصادق قد يجسد العبودية في مجال آخر. ولكل عمل ميزانه الشرعي وموقعه، ولا تختزل العبادة في أثرها النفسي أو الاجتماعي.

ويظهر المعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة، 55).

وتجمع الآية بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في صورة واحدة؛ فتقرب أن الحضور مع الله يفتح القلب على خلقه ولا يغلقه عنهم، وأن العبادة الصادقة لا تعزل الإنسان عن أداء الحق.

والهدف أن تعيش هذا الانقطاع وأنت تأكل وتشرب وتنام وتدرس وتعمل وتلاعب أطفالك وتمازح أصدقاءك. فلا تشغلك الصلة بالله عن الحياة، ولا تشغلك الحياة عن الصلة به؛ لأن ممارسة الحياة وفق أمره من صميم العبودية له.

ويقرب ذلك مثال لاعب يدخل مباراة حاسمة وهو مستغرق في هدفه؛ فلا يعزله استحضار الغاية عن اللعب، بل يمنحه تركيزاً وحضوراً في كل حركة.

إن الغاية التي يحملها اللاعب في داخله لا تنافس أفعاله في الملعب، وإنما تنظمها وتجمع طاقته عليها، فيعرف لماذا يتحرك وإلى أين يتجه.

وهكذا لا يتعارض استغراقه في أداء اللعبة مع استحضاره للفوز؛ فالغاية حاضرة في كل تفصيل من غير أن تكون فعلاً منفصلاً عن تفاصيل اللعب.

ومع الفارق، إذا امتلأ القلب بمعرفة الله ومحبته صار هذا الحضور باعثاً على العمل لا على الانسحاب، ومصدراً للحرية من عبودية الصورة والنتيجة، لا ذريعة لإهمال الأسباب.

والله يريد للإنسان أن ينتفع بطيبات الدنيا المباحة ويسعى إليها بتوازن: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف، 32)، و﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ (الملك، 15). ويمكن الاختبار في أن نستعمل هذه النعم من غير إسراف، وألا تأسرنا أهوائنا بها.

وكذلك يريد الله أن نحب أنفسنا ونفهمها ونرعاه؛ لكن من غير أن تتحول الذات إلى معبود خفي يحدد لنا الحق والخير بحسب هواها.

وبتعبير آخر، يريدنا الله أن نفنى عن دعوى الاستقلال، لا أن نفقد إنسانيتنا أو مسؤوليتنا؛ فنرى أنفسنا عباداً قائمين به، ونوجه وجودنا كله إليه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، 56).

ولله مع خلقه معية عامة قوامها علمه وإحاطته وقيوميته؛ فلا يخرج موجود عن علمه أو حفظه. وله مع عباده معية خاصة من العناية والهداية والتثبيت والنصر بحسب حكيمته ووعدده. وهذه المعية الخاصة فعل من الله، وليست بعداً ثالثاً في قراءة قرب الإنسان، ولا ضمناً بأن تأتي النتائج الدنيوية على الصورة التي يريدها.

فكيف نقرأ حركة الإنسان في هذا القرب؟

ولفهم حركة الإنسان في هذا القرب، يطلق المشروع اسم «معادلة القرب» على بناء علائقي غير عددي يقرأ قرب الإنسان أو بعده من تفاعل بُعدين: التحقق الكمال، ووجهة الاستجابة للتحق والعبودية. فهي ليست جمعاً أو ضرباً، ولا سلم درجات لترتيب الأشخاص، وإنما أداة لفهم المسار ومراجعة الذات.

ولا يبدأ الناس من الظروف نفسها؛ فما يتحقق في الإنسان من كمال، وما يقدر عليه من استجابة، يتأثران ببدنه ووراثته وتربيته وبيئته وما بلغه من بيان وما ناله من عون. لذلك لا يدل مقدار الكمال وحده على مقدار الاستحقاق الشخصي، كما لا تعني الاستجابة الصادقة اكتمال الكمالات.

◆ البعد الأول: التحقق الكمال

التحقق الكمال هو ما صار بالفعل جزءاً من كيفية النفس من علم وفهم وإرادة وقوى وملكات وكمالات. والكمال هنا أوسع من الفضيلة الأخلاقية التامة؛ فيدخل فيه ما تحقق من قوة الإرادة والفهم والمهارة، وتبقى الحكمة والعدل والرحمة والشجاعة والعفة والصبر والصدق والحلم والكرم من أمثله الغائية. وهذه حقائق في النفس مهما كان منشؤها القريب، مع اختلاف ما يُنسب منها إلى سعي صاحبها.

ولا يوضع كل ذكاء أو معرفة أو مهارة في جانب واحد على الإطلاق. فما بقي قدرة أولية أو معلومة محفوظة أو مورداً خارجياً - كالمال والمنصب والفرصة والصحة البدنية - يوسع مجال الفعل ويبقى اتساعاً أداتياً. أما الفهم المتحقق، والإرادة الراسخة، والمهارة التي صارت ملكة في النفس، فتدخل في التحقق الكمال، مع بقاء قيمتها الأخلاقية رهينة وجهتها واستعمالها.

ولهذا تدخل تنمية المواهب والمهارات في السير إلى الله حين تُوجَّه إلى الحق، بينما يجعل إثماء الحكمة والعدل والرحمة والشجاعة النفس نفسها أكل. أما جب مقتضى الفطرة أو الإعراض عنه، وترسيخ الظلم والجهل، فكل ذلك يبعد الإنسان ولو كثرت أدواته وإنجازاته.

◆ البعد الثاني: الاستجابة للحق والعبودية

أما الاستجابة للحق والعبودية فهي موقف النفس مما ظهر لها من الحق: قبولاً وإذعاناً وطاعةً، أو إعراضاً ورفضاً واستكباراً، بحسب ما بلغها من بيان وما كان في وسعها. ويظهر هذا الموقف في النية والإرادة والاختيار والعمل والتوبة والإصلاح. أما الجهل المجرد، قبل إمكان البيان والتحقيق، فليس استجابةً سلبية في ذاته.

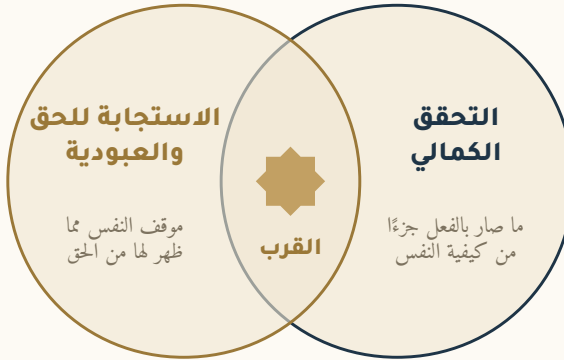


وفي الحديث القدسي: «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما
اقتضت عليه، ولا يزال عبدي يتنفل لي حتى أحبه... وإن
دعاني أجبتة، وإن سألني أعطيته» (الصدوق، التوحيد، الباب
62، ح 1).



وقد يصدق الإنسان في استجابته، مع بقاء ما تحقق فيه من كمال محدوداً بسبب بدايات شاقة أو عوائق خارجة عن اختياره. وقد تتوافر لغيره قوى أو موارد واسعة، ثم تفسد وجهة استجابته. وما تحقق في النفس يمنح الاستجابة سعتها وأثرها، والاستجابة تمنحه وجهته؛ ولذلك قد تعظم ثمرة الطاعة أو تبعة

الرفض بقدر العلم والقدرة والأثر، من غير علاقة حسابية أو حكم على منازل الأشخاص.



فهي ليست جمعاً أو ضرباً، ولا سلم درجات

معادلة القرب: بناء علائقي غير عددي يقرأ قرب الإنسان أو بعده من تفاعل بُعدين

وتفصل الفصول الآتية كيف تتجسد هذه الحركة في السنن والشريعة والعبادات والعمل والعلاقات، بحيث تنمو النفس في الكمال ويصدق اتجاهها إلى الحق والعبودية، وكل ذلك داخل واقع الإنسان الكادح ومسؤولياته اليومية.





القسم الثاني

القوانين والسنن الكونية

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

(فاطر، 43).

تتجسد حركة الإنسان إلى الله في تزكية نفسه وصدق عبوديته، وهو يكبح في الأرض ويؤدي أمانة الاستخلاف. ولكن كيف تنتظم هذه الحركة؟ وهل تجري الحياة بلا نظام، أم وفق سنن ثابتة أودعها الله في الخلق؟ هذا ما يتناوله هذا الفصل.

ويشير انتظام العالم أسئلة أخرى: كيف نفهم التفاوت في الصفات والأحوال، ووجود الكائنات المؤدية، وكون الإنسان يبدأ رحلته في الدنيا لا في دار

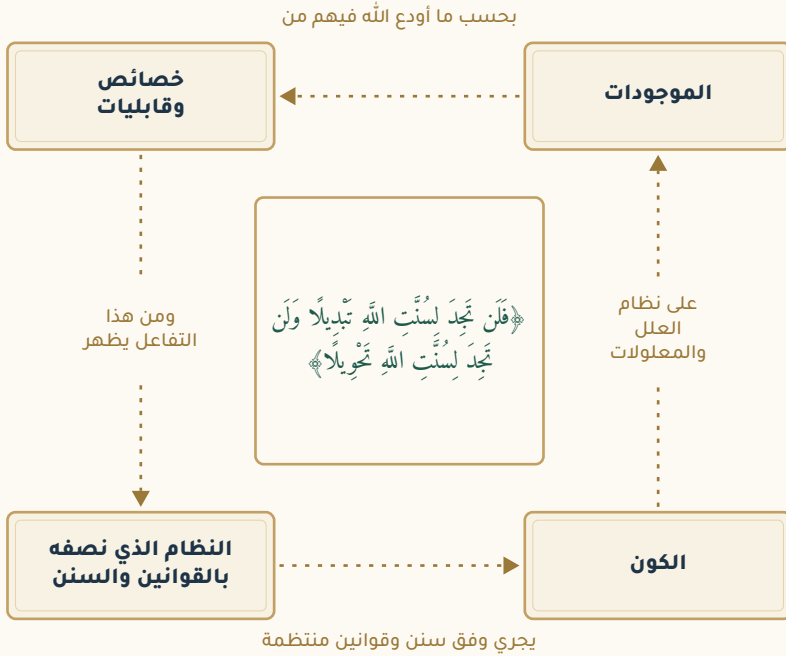
الجزاء؟ لا تُفهم هذه المسائل بعزل كل ظاهرة عن النظام الكلي، بل بالنظر إلى السنن وتعدد الأسباب ومجال الاختيار وغاية الابتلاء.

يجري الكون وفق سنن وقوانين منتظمة، كقانون الجاذبية والعلاقة بين الأسباب ونتائجها. وهذه السنن من تقدير الله، وبها يستقر العالم وتصبح المعرفة والعمل والتخطيط ممكنة. قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر، 43).

وتفسر هذه السنن جانباً من التفاوت والاختلاف في الخلق، كما تحكم كثيراً من آثار أفعالنا في النفس والمجتمع والطبيعة. ولهذا دعانا الله إلى اكتشافها والأخذ بها، لا بوصفها قوى مستقلة عنه، بل بوصفها الطريق الذي أجراه في العالم. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الملك، 15).

ولا توجد هذه القوانين كذوات منفصلة عن الموجودات ثم تفرض نفسها عليها؛ إنما تنتزعها من انتظام العلاقات بين الأشياء وصفاتها، ومن تكرر الآثار على وجوه يمكن ملاحظتها وفهمها.

فالكواكب والبحار والكائنات الحية والبشر يتفاعلون بحسب ما أودع الله فيهم من خصائص وقابليات، ومن هذا التفاعل يظهر النظام الذي نصفه بالقوانين والسنن.



لا توجد هذه القوانين كذوات منفصلة عن الموجودات؛ إنما ننتزعها من انتظام العلاقات بين الأشياء وصفاتها

ولا تنفصل صفات الموجود عن وجوده المعين؛ فالامتداد والكتلة والملاح ليست أشياء أُضيفت من خارج إلى جسم مكتمل، بل هي من الكيفية التي وُجد بها. ومن هنا يرتبط اختلاف الموجودات باختلاف أسبابها واستعداداتها وحدودها.

ومن هنا نسأل: كيف نعين الموجودات بصفاتها المختلفة؟ إن الله خالق كل شيء، لكنه أجرى الخلق عبر شبكة من الأسباب والسنن التي تتوسط في ظهور الصفات والنتائج.

ولا تعني كثرة الموجودات وتنوع الأسباب أن الخلق خرج عن وحدة الإرادة الإلهية؛ فأمر الله واحد، وقد أقام العالم على نظام العلل والمعلولات. ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر، 50)، ﴿وَإِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر، 49).

ولهذا يبدأ الإنسان بخصائص وراثية وبدنية، وبقابليات واستعدادات متفاوتة. فالقابلية هي مجال ما يمكن أن ينمو أو يتكوّن في الإنسان، والاستعداد هو مدى تهيئه لذلك في ظرف معين. ومن هذه الفروق الطول ولون البشرة وبعض الاستعدادات العقلية والبدنية. أما صفاته الأخلاقية فتتكوّن بتفاعل المزاج والبدن والتربية والبيئة والتجربة والاختيار والعمل المتكرر؛ فلا تختزل شخصية الإنسان في الجينات، ولا تلغى مسؤوليته.

أما القدرة الفعلية فهي ما يستطيع الإنسان فعله أو تركه الآن في موقفه الحاضر، والوسع هو ما تقوم عليه مسؤوليته في ظرفه الواقعي بالنظر إلى العلم والقصد والقدرة والموانع وما يستطيع تهيئه أسبابه المتاحة. وقد تُبحث مسؤولية مقدمات سابقة بقدر ما كانت معلومة ومقدورة ومختارة، ولا يملك الناظر من خارج أن يجزم بوسع شخص آخر؛ لأن عناصره لا تنكشف كلها من الظاهر.

ولهذا يؤثر اختلاف الأسباب القريبة في تعيّن الموجود وصفاته؛ فلو اتحد البويضة بخلية منوية أخرى، أو وقع الإخصاب ببويضة أخرى، لنتج إنسان آخر بخصائص مختلفة.

والأمر كذلك في سائر الموجودات؛ فلكل موجود أسباب قريبة تسهم في ظهوره وصفاته، وتعمل كلها داخل النظام الذي أقامه الله، لا خارجه ولا استقلالاً عنه.

هل يعني ذلك أن الكون يتصرف باستقلالية وفق قوانينه دون الحاجة إلى خالقه؟

كلا. فالكون بكل ما فيه فقير إلى الله في أصل وجوده وفي بقائه لحظة بعد لحظة. والسنن لا تحمل نفسها، والأسباب لا تمنح ذاتها القدرة؛ إنما تقوم بالله ويجري أثرها بما أفاض عليها. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر، 15).

فالسبب القريب يؤدي أثره بما أودع الله فيه من قدرة، لكنه لا يصبح مصدراً مستقلاً للوجود. وحين يهيئ السبب الشيء لنتيجة معينة، فإن النتيجة تقع، بلغة الحكمة الإسلامية، داخل الفيض الإلهي المستمر، بحسب قابلية المحل ودرجة استعداده.

واختلاف القابليات والاستعدادات لا يعني أن الله يمنع خيره عن بعض خلقه ظلماً؛ بل إن كل موجود يتلقى من العطاء الإلهي بقدر ما تسمح به بنيته ومساره. ويبقى باب النمو والتغيير مفتوحاً للإنسان في حدود ما يستطيع وما يختار.

فالوجود في أصله خير وعطاء، والله كريم لا ينفد عطاؤه، غير أن الموجودات تتفاوت في استعدادها ومرتبته وأثرها. ومن هنا نفهم كيف تجتمع سعة الفيض مع اختلاف ما تتلقاه المخلوقات.

ويضرب القرآن صورة تقرب هذا المعنى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد، 17). فالماء واحد، لكن كل وادٍ يحمل منه بقدر سعته؛

وكذلك ثنفاوت الموجودات في قابليتها، من غير أن يكون العطاء الإلهي محدوداً بحدودها.

ولكن، ألا يؤدي ذلك إلى وجود الشرور؟

والشر ليس وجوداً مستقلاً يقف بإزاء الله؛ فكثير مما نسميه شراً يرجع إلى فقد كمال، أو إلى ألم يقع في جزء من نظام أوسع، أو إلى سوء اختيار الإنسان واستعماله لما أوتي. وهذا لا يلغي حقيقة الألم ولا المسؤولية عن الظلم، لكنه يمنعنا من تصور الشر مصدراً قائماً بذاته خارج سلطان الله.

كما أن حكمنا على الأشياء قد يضيق بزاوية المصلحة العاجلة؛ فالطفل قد يرى الدواء شراً والحلوى خيراً، لأن نظره يقف عند اللذة والألم المباشرين. والإنسان يحتاج إلى توسيع نظره من غير أن ينكر ما يعانيه أو يستخف بألم غيره.

والموت مثال واضح؛ فهو فراق مؤلم في تجربة الدنيا، لكنه في الرؤية الإيمانية ليس عدماً ولا شراً مطلقاً، بل انتقال إلى طور آخر من مسيرة الإنسان. وبذلك يجتمع الاعتراف بألم الفقد مع الإيمان بأن الوجود لا ينتهي عنده.

إذا كانت هذه القوانين لا تتخلف أبداً، فلماذا ندعو الله إذاً؟

والدعاء نفسه سبب من الأسباب التي جعلها الله داخل سننه؛ فهو يغيّر الإنسان، ويفتح أبواباً من الهداية والعمل، وقد يجري الله به من العطاء ما يشاء على وجوه نعلم بعضها ونجهل بعضها. لذلك لا يقف الدعاء في مقابل القانون، بل يتحرك داخله وتحت سلطان الله.

وقدرة الله لا تقاس بقدرات المخلوقات ولا تحصرها السنن التي أقامها، فهو خالقها والقائم عليها، ويجري مشيئته من خلالها أو بما يتجاوز علمنا بها. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس، 82).

كما أن الدعاء عبادة ترسخ فقر الإنسان إلى الله، وتعيد توجيه القلب من الركون إلى الأسباب نحو مسببها، من غير أن تعطل السعي أو تنفي مسؤولية الأخذ بها. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة، 186).





القسم الثاني

مسيرة الحياة

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

(البقرة، 156).

كل إنسان كادح إلى لقاء الله منذ أن خلق: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق، 6). فالكدح حركة وجودية ملازمة عبر الزمن، لا يعني في ذاته قرباً إيجابياً أو نمواً محموداً. أما ما يصير إليه الإنسان قرباً أو بعداً فيتحدد بما يتكوّن فيه وبوجهة استجابته، بحسب ما بلغه من هداية وما كان في وسعه، مع افتقاره الدائم إلى عون الله.

وتنظم حياة الإنسان في أطوار متعاقبة، لكل طور منها استعداد يناسبه. ويقرب القرآن هذا التدرج حين يصف خلق الإنسان من طين، ثم نطفة، ثم

علقة، ثم مضغة، إلى أن ينشئه خلقاً آخر، ثم يذكر الموت والبعث: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بِعَدَ ذَلِكَ لَمَمِيتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون، 15-16).

فتبدأ نشأة الإنسان البدنية بالإخصاب وبداية التكوين الجنيني، ثم ينمو في الرحم حتى يولد إلى عالم الدنيا. وكل انتقال يفتح له مجاًلاً من الوجود لم يكن قادراً على إدراكه في الطور السابق.

ثم ينتقل الإنسان بالموت إلى عالم البرزخ، ويأتي البعث إلى عالم الآخرة، دار القرار. ويبقى الشخص الإنساني نفسه بإبقاء الله له، وتغير كيفية تجسده بما يلائم البرزخ والآخرة، من غير أن ندعي معرفة الكيفية. ولا نخطط بتفاصيل هذه الأطوار، لكن الوحي يخبرنا بأن الموت ليس نهاية الوجود، وأن الإنسان يلقي آثار ما صارت إليه نفسه وما صدر عنها. أما مسؤوليته عن ذلك فتقدّر بالعلم والقصد والاختيار والوسع.



أطوار الحياة المتعاقبة، من الدنيا إلى الآخرة

ومهما امتد عمر الدنيا في حسابنا، فإنه يبقى قصيراً إذا قيس بحياة الآخرة الباقية: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت، 64).

كيف نفهم العالمين الآتين؟

نستطيع أن نعرف عن البرزخ والآخرة ما كشفه الوحي، لكن حقيقتيهما تتجاوز خبرتنا الحسية في الدنيا: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة، 61).

ولتقريب الفرق، تأمل ما بين وجود الجنين في الرحم ووجود الإنسان بعد الولادة؛ فالجنين لا يستطيع أن يحيط بالعالم الذي سيخرج إليه، وإن كان ذلك العالم حاضراً في نظام وجوده.

والدنيا، بما فيها من سماوات وأرض ومجرات، أوسع من إدراك الجنين بما لا يقاس. ومع ذلك تبقى هي نفسها طوراً محدوداً أمام ما أخبر الله به من البرزخ والآخرة.

ولا يعني هذا أن نستطيع وضع نسبة حسائية بين العوالم؛ فالتشبيه يراد به فتح الذهن على اتساع ما لا نعرفه، لا وصف حقيقته أو قياسه بمقاييس الدنيا.

فالعالم الآتي ليس نسخة أكبر من عالمنا المادي. ولا نملك أن نصف زمانه ومكانه بمقاييس الدنيا من غير دليل؛ لذلك تقف الأمثلة عند حد التقريب، ويبقى علم الحقيقة لله.

انكشاف السعادة والشقاء

في الآخرة تنكشف آثار ما يسميه المشروع «الصورة الوجودية المكتسبة»: أي النفس من حيث ما صارت إليه من معارف ومحبات ونيات وملكات ووجهة وكالات ونقائص. ولا يعني وصفها بالمكتسبة أن الإنسان اختار جميع أسبابها أو يستحق أخلاقياً كل ما تكون فيه؛ فالمسؤولية تُقدَّر بالعلم والقصد

والاختيار والوسع. ويصبح القرب أو البعد أشد حضوراً في تجربتها، وقد عبّر القرآن عن حضور العمل بقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ (الكهف، 49).

ولهذا لا تكون لذة الآخرة وألمها مجرد امتداد كمي لما نعرفه في الدنيا، بل يرتبطان بطور أوسع ينكشف فيه الإنسان لنفسه وتظهر نتائج مساره.

وفي الدنيا يربط كثير من الناس إحساسه بالسعادة بأشياء خارجة عن ذاته، كالمال والأولاد والجاه. أما في العالمين التاليين فتظهر الصلة الأعمق بين حال الإنسان وما صار إليه من صفات ووجهة، أي بما تحقق في نفسه وبصدق استجابته للحق.

لم يكن لنا اختيار في أصل وجودنا ولا في كثير من بداياتنا، لكن الدنيا هي الطور الذي أعطينا فيه إرادةً ومسؤوليةً لنشارك، في حدود ما أقدرنا الله عليه، في تشكيل الصورة التي نلقى بها الآخرة، بسبق خلق الله وهدايته ومدده وتوفيقه، لا باستقلال عنه. ولا يعني ذلك أننا اخترنا جميع الأسباب التي أثرت فينا؛ وإنما نهى باختيارنا وأعمالنا ما ننتقل به إلى العالم الآتي: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات، 40-41).

وحين تُقاس الدنيا بالآخرة تبدو قصيرةً عابرة، مهما طال عمر الإنسان فيها. وليس المقصود إلغاء قيمة الوقت الدنيوي، بل إدراك أنه يكتسب قيمته من الأثر الذي يتركه في المسار الأبقى.

ولذلك لا ينبغي أن تتحول لذة محدودة إلى غاية نهائية نضحي من أجلها بالحق والكرامة والمصير؛ فاللذة مشروعة في موضعها، لكنها لا تحمل وحدها معنى الحياة.

وكذلك لا ينبغي أن يدفعنا ألم عابر إلى ترك ما نعلم أنه حق، أو إلى اليأس من رحمة الله. فالألم حقيقي، لكن وجود الآخرة يضعه في أفق أوسع من اللحظة التي يملأ فيها وعينا.

والحكمة أن نزن العاجل بالآجل: نعيش الدنيا بجدية، ونستمتع بطيبتها في حدود الحق، وندفع آلامها بالأسباب المشروعة، من غير أن نبيع حياة باقية بلذة عابرة أو خوف مؤقت.





القسم الثاني

الجزء الأخروي

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾

(آل عمران، 30).

ننتقل إلى العالمين الآتين بأنفسنا وهويتنا. فالمعارف والمحبات والنيات والأعمال والملكات تدخل في تكون النفس وفي الصورة التي تصير إليها، بسبق خلق الله وهدايته ومدده وتوفيقه، لا باستقلال عنه. ولا يعني «المكتسب» أن الإنسان اختار جميع ما أثر فيه أو يستحقه أخلاقياً كله؛ فالمسؤولية تُقدَّر بالعلم والقصد والاختيار والوسع. وتظهر حقائق الأعمال وآثارها في الآخرة بصور تلائم تلك النشأة بإظهار الله وحكمه: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف، 49). ولا

يستنفد هذا الظهور معنى الثواب والعقاب، ولا يغلق أبواب المغفرة والشفاعة والفضل الإلهي.

والأمر يشبه صفةً تبقى آثارها محدودة ما دام الإنسان في بيئة معينة، ثم تنكشف حين ينتقل إلى بيئة أخرى تختلف قوانينها ومتطلباتها. فما يتكوّن في النفس وما يصدر عنها قد لا تنكشف جميع آثاره الآن، لكن الانتقال إلى عالم آخر يكشف ما كان مستوراً: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق، 22).

ومن وجوه تفسير هذه الآيات في «الميزان» أن الجزء الأخرى ليس أمراً اعتبارياً يلحق بالعمل من خارجه؛ فالعمل محفوظ بأثره في النفس، ثم يظهر بإظهار الله يوم تُبلى السرائر. انظر تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ (آل عمران، 30)، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التحریم، 7)، في «الميزان».

وماذا عن الموت؟

الموت صعب على الإنسان لما فيه من فراق وانتقال إلى عالم لم يختبره بحواسه، غير أن صعوبته لا تعني أنه عذاب في ذاته. فهو باب إلى طور آخر، وتختلف حال الإنسان بعده بحسب ما صارت إليه نفسه وبحسب رحمة الله وعدله.

إن القرآن عندما يصف قبض أرواح المؤمنين يقول: ﴿الَّذِينَ نَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل، 32)، بينما يقول عن قبض أرواح الكافرين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال، 50).

وروي عن الإمام السجاد (ع) تشبيه الموت للمؤمن بالانتقال من ثوب ضيق وقيود ثقيلة إلى لباس أطيّب ومنزل آس، في حين يكون حال من انقطع عن الله على خلاف ذلك (الصدوق، معاني الأخبار، باب معنى الموت). والمقصود أن الموت باب إلى طور تنكشف فيه حقيقة ما صارت إليه نفس الإنسان.

فهل سيدخل الكافرون النار؟

إن الدين الذي ارتضاه الله للبشر طريقاً يسلكونه إليه هو الإسلام، خاتم الشرائع السماوية. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران، 85).

ويميز الشيخ مرتضى المطهري في «العدل الإلهي» بين من عرف الحق ثم جحده عناداً، وبين «المستضعف الفكري»: وهو من لم تبلغه الحجة، أو لم يملك سبيلاً واقعياً إلى معرفتها والتحقق منها، ولم يكن معانداً أو مقصراً في سلوك طريق كان في وسعه. فالمسؤولية لا تُقاس بمجرد الاسم أو الانتماء، بل بما بلغه الإنسان من بيان وما كان في وسعه وموقفه من الحق.

وقد يظهر لدى هذا الإنسان ما يسميه المشروع «استجابة حقيقية فطرية إجمالية»: أي اتجاه صادق إلى الحق والخير والكمال، يحمله على قبول ما يتبين له منها بقدر فهمه ووسعه، من غير أن تُنسب إليه عبودية دينية صريحة لم يعها. ولا يتيح هذا الوصف وحده حكماً بالنجاة أو المنزلة؛ فذلك كله داخل سعة عدل الله ورحمته وعلوه بعباده: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء، 15).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء، 97-99).

ويشرح السيد الطباطبائي عند تفسير آيات الاستضعاف في سورة النساء (97-99) في «الميزان» أن الاستضعاف لا يقتصر على العجز المادي الظاهر؛ فقد يكون الإنسان مستضعفاً فكرياً، عاجزاً عن الاهتمام إلى الحق بسبب ظروف غلبت على وعيه، من غير عناد ولا استكبار، ولو ظهر له الحق لاتبعه.

فثل هذا لا يُسوَّى بمن عرف ثم جحد؛ إذ تتعلق المسؤولية بما بلغه من البيان وما كان في وسعه. ويظل الحكم النهائي لله العادل الرحيم، العالم بباطن الإنسان وظروفه.

كيف نفهم نعيم الجنة؟

حين نقرأ أوصاف الجنة قد نقف عند صور القصور والحدائق والأنهار وسائر النعيم الحسي، فنظن أن الحياة هناك تكرر مادي ساكن لما نعرفه في الدنيا. غير أن القرآن يقدم هذه الصور لتقريب ما لا تحيط به خبرتنا، ولا يحصر نعيم الآخرة فيها.

فهل تكون الحياة الأبدية مجرد امتداد رتيب للمتعة المادية؟ لا يستقيم ذلك مع ما بناه الإنسان في الدنيا من معرفة وإرادة ومحبة، ولا مع قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة، 72).

إن ما تحقق في النفس من معرفة ومحبة وفضائل ووجهة واستجابة للحق لا يضع في الآخرة؛ بل يدخل في كيفية تلقيها للنعم والقرب والرضوان، مع بقاء الفضل لله والحكم النهائي له. ولذلك تتفاوت مراتب الناس، ويجد كل إنسان من الخير بفضل رحمة الله وبحسب ما تهيأت له نفسه.

وما ذكره القرآن من نعيم الجنة بعض ما يمكن أن يفهمه الإنسان بلغته وتجربته، أما حقيقتها فأوسع من التصور. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق، 35)، و﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة، 17).

والدنيا طور حقيقي من مسيرة الإنسان، وليست وهماً أو لعبة بلا أثر؛ لكنها محدودة وليست الحقيقة النهائية ولا موطن الاستقرار. أما الآخرة فهي الحياة الأوسع التي تنكشف فيها حقائق الأعمال ومرتبات القرب. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت، 64).

ولهذا لا تفهم الجنة حياة ساكنة مملّة، بل عالماً يفتح للإنسان من القرب والرضوان والمعرفة والنعم ما لا يحيط به وصفنا. ولا يتنى أهلها التحول عنها؛ لأنها تلائم ما صارت إليه نفوسهم من صفاء وما تهيأت له من الخير، ويظل فضل الله فيها أوسع من كل ما يتصورون، عطاءً غير مجدود: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق، 35).





القسم الثاني

اللفف والرحمة الإلهيان

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

(الفاتحة، 1).

اللفف الإلهي في عالم الدنيا

الله لطيف بعباده؛ يفتح لهم ما يقربهم إلى طاعته ويبعدهم عن معصيته، من غير أن يسلبهم الاختيار. قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة، 36)، وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ (الشورى، 27).

ومن لطف الله أن سبق مسؤولية الإنسان بهداية البيان والتمكين: فوهبه فطرةً تحمل أصلاً حضورياً إجمالياً للحق، وحباً أصيلاً للكمال المطلق، واتجاهاً إلى العبودية، وأعطاه عقلاً وبياناً وإمكاناً للتعلم وقدرةً، وفتح له طريق الاستجابة

على درجات متفاوتة. وليست الفطرة معرفةً تفصيلية جاهزة أو وعياً دينياً مكتملاً؛ لذلك يحتاج ظهورها وتعيين متعلقها إلى الوحي والعقل والتزكية. والكبح يجري داخل الحياة نفسها: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فُلَاqِيهِ﴾ (الانشقاق، 6).

ويصل القرآن هذا الأصل بالدين الخفيف: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَئِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم، ٣٠). ويأتي بعدها الأمر بالإقامة والتقوى والصلاة وترك الشرك (الروم، ٣١)؛ فلا تنفصل الفطرة في هذا السياق عن الاستجابة لله.

ومن هنا نفهم صلتها بميثاق الربوبية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ١٧٢). ثم يذكر السياق التعلل باتباع الآباء في الشرك، ويختتم: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٤). فالإشهاد يتصل بمعرفة الرب، وبالحجة والدعوة إلى الرجوع.

وتقرأ نظرية النشأة هذه الصلة على النحو الآتي: الفطرة أصل في خلقه الإنسان، والميثاق إشهاد على ربوبية الله؛ ويجمعهما المحتوى التوحيدي من غير أن يصبحا لفظين مترادفين. ويؤيد ذلك قول الإمام الصادق (ع) في تفسير الفطرة: «هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال: ألسنت بربكم، وفيه المؤمن والكافر». ولا يعني هذا أن الإنسان يولد عالماً بجميع أحكام الدين أو كامل الاستجابة لها؛ فهو يحتاج إلى البيان والتعلم والتزكية،

وتبقى مسؤوليته بحسب ما بلغه وما في وسعه. أما كيفية الإِشهاد، فقد اختلف المفسرون في فهمها، ولا يتوقف هذا الربط على حسمها.

ويصحب الإنسان في كدحه مدد الله: عونه وهدايته وثبتيته وتهيئته للأسباب وفتح سبل تحقق الثمرة. يسبق هذا المدد سعي الإنسان ويصعبه ويتجاوزته، من غير أن يلغي فعله أو السنن أو يضمن له الصورة التي يريدها من النتيجة. وتظهر آثاره فيما يفتح للإنسان من أبواب الخير في الدراسة والعمل والأسرة والخدمة، وفي إيقاظ الفطرة وتمكينه من النظر والرجوع، مع بقاء المجاهدة والاختيار.

وسخر الله للإنسان من الكون ما يعينه على أداء الأمانة والسير إليه، لا ليحمله متفوقاً على الوجود كله، بل ليحمله مسؤوليةً أوسع تجاه النعمة والخلق: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ (الجن، 13).

ومن تكريم الله للإنسان أمرُ الملائكة بالسجود لآدم (ع)، وهو سجد طاعة لله وتكريم لما أودعه في الإنسان من قابلية لحمل الأمانة. ولا ينفصل هذا التكريم عن التحذير من الكبر؛ فقد امتنع إبليس فكان من الكافرين.

وشرع الله الإسلام هدايةً للإنسان، وحبب الإيمان إلى القلوب، ليربي فيه القيم التي يحبها من الصدق والرحمة والعدل. وقد وعد الله من جاهد في سبيله مخلصاً بالهداية، مع بقاء الفضل لله وحكمته في صور المدد ونتائجه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (الغنكوت، 69).

الرحمة الإلهية في عالم الآخرة

ومع لطف الله في الدنيا، تتجلى رحمته وعدالته في نظام الجزاء؛ فلا يسوي بين المعاند والقاصر، ولا يؤاخذ الإنسان إلا بما قام عليه من حجة وما صدر عنه بعلم وقصد وكان في وسعه. ويقول الإمام علي (ع) في دعاء كميل: «لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك... لجعلت النار كلها برداً وسلاماً» (الطوسي، مصباح المتجهد، دعاء كميل).

ويمكن للعمل المباح أن يدخل في العبادة بمعناها العام إذا صحت النية والغاية والوسيلة، وحُفظت الحقوق، ولم يزاحم واجباً؛ فتكتسب صور الحياة اليومية قيمةً عبادية حين يقصد بها الإنسان وجه الله. ولا يتحول المباح تلقائياً إلى شعيرة، ولا تصحح النية وسيلةً باطلة أو غايةً غير مشروعة.

والخاطر السيئ الذي يمر بالقلب من غير اختيار لا يؤاخذ به الإنسان حتى يعقد عليه ويترجمه إلى قول أو فعل، بينما يكتب الله للنية الحسنة أجرها ولو حال العجز دون تمام العمل.

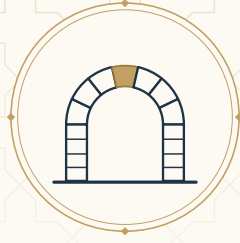
كما جعل الله الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ (الأَنْعَام، 160). وفتح أبواباً لمغفرة السيئات ومحو آثارها، في مقدمتها التوبة الصادقة، ومن أسبابها الأعمال الصالحة كالصدقة وصلوة الرحم؛ بل قد يبدل بالتوبة الصادقة السيئات حسنات: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان، 70).

ومن أبواب الرحمة الشفاعة بإذن الله، وهي صلة بالخير ورموزه، من غير تجاوز لعدله. وقد وردت النصوص في شفاعة القرآن والنبي (ص) وأهل بيته (ع)،

لتبقى الولاية رابطةً بالهداية والعمل الصالح، لا اعتماداً يعطل التوبة والمسؤولية.

وقبل هذا وذاك باب المغفرة والعفو: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر، 53).





القسم الثاني

الشريعة الإسلامية

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الجاثية، 18).

لماذا الشريعة الإسلامية؟

لا يصدر سلوك الإنسان من قرار عابر وحده؛ فالأفكار والنيات والعادات والأعمال المتكررة تتجمع بمرور الوقت حتى تكون في داخله هيئة يرى بها الأشياء ويتعامل معها. وهذا مما يشير إليه القرآن بمفهوم الشاكلة: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء، 84).

وتتشكل هذه الشاكلة من تفاعل معارف الإنسان وتصوراته ومحباته ونياته وميوله وعاداته وملكاته، وما استقر فيه من آثار المزاج والبدن والتربية والبيئة

والتجارب والاختيارات؛ فتجعل بعض طرائق الإدراك والاستجابة والعمل أقرب إلى الصدور من غير أن تجبره عليها. ومن هنا لا تكفي معرفة الحق ما لم تحول إلى ممارسة تربي الإنسان وتحفظ وجهته.

ولهذا ربط القرآن فلاح الإنسان بتزكية نفسه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، 9-10). والتزكية مسار تطهير النفس من المحب والردائل، وتنمية قواها وكلماتها، وإعادة توجيهها نحو الحق والعبودية، بهداية الله ومدمده.

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية؛ فهي نظام هداية يسهم في تكون الإنسان ويحفظ وجهته إلى الله، ويصل بين ما يؤمن به وما يفعله. فلا تخاطبه في لحظة العبادة وحدها، بل تنظم علاقته بالله وبنفسه وبالناس والمال والعمل.

والإنسان في هذه الرؤية كائن حر مسؤول، تتكون نفسه بتفاعل ما أعطيه وما وقع عليه وما عرفه وأحبه ونواه واختاره وعمله. وهو يشارك بإرادته في تشكيل شاكلته. والشريعة ليست تقنية نفسية، بل خطاب هداية يوقظ العقل والقلب، ويهذب الرغبة، ويربي الإرادة، ويفتح للإنسان أبواب الرحمة والعدل والعطاء.

ولا يعني ذلك إهمال أثر العادة والتكرار؛ فالممارسة المنتظمة تسهم في تثبيت الخير وضبط النفس. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج، ١٩-٢٣). وفي تفسير «الميزان» و«الأمثل»، يتصل الهلع بشدة الحرص على ما يراه الإنسان خيراً لنفسه. فأصل طلب الخير قابل

للتهديب، لكن استبداد الحرص قد يدفعه إلى الجزع عند الضر والمنع حين ينال الخير. وليس المقصود إدانة أصل الخلقة أو إلغاء حاجات الإنسان.

ولا يقف وصف المستثنين عند الصلاة؛ بل يشمل البذل والتصديق بيوم الدين والإشفاق وحفظ الفروج والأمانات والشهادة والمحافظة على الصلاة، إلى الآية ٣٥. ومن أوصافهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المعارج، ٣٢). فالوفاء حاضر في هذا الطريق، من غير أن نحصر كل عهد هنا في ميثاق الأعراف. كما أن وصفهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (المعارج، ٢٧) يمنع فهم الاستثناء على أنه محو لكل خوف.

وتقرأ المنظومة هذا السياق بوصفه بياناً لأثر العبادة والعمل الصادق في تهذيب الاستجابة: صلاة يتعاهدها الإنسان، وبذل يقاوم الشح، وأمانة تصدق في المعاملة. وقد تعين المداومة على رسوخ ذلك، لكنها لا تضمنه بالصورة الظاهرة وحدها. ويبقى أثر العادة خادماً للتزكية، لا أساساً مستقلاً لتعريف الشريعة، ولا شرطاً يتوقف عليه وجوب العبادة.

والغاية أن يوجه الإنسان كدحه إلى الله بوعي: فيصح وجهته، ويزكي نفسه، ويستعمل حريته في الاستجابة لله، حتى تنعكس هدايته على حياته الفردية والاجتماعية. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق، 6).

ما الشريعة الإسلامية؟

الشريعة الإسلامية منظومة متكاملة من العبادات والأخلاق والأحكام، هدى الله الإنسان إليها لتنظم سعيه في الحياة، وتحفظ وجهته إليه، وتعينه على صلاح نفسه ومجتمعه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران، 19).

وقد ارتضاها الله منهجاً يراعي الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية، ويجعل الاعتقاد والعبادة والأخلاق والعمل حركةً واحدةً في طريق العبودية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعَمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة، 3).

وتعمل هذه المنظومة، بما تشتمل عليه من عبادات وآداب وأحكام، على تقوية الإرادة، وتهذيب النفس، وتنمية الانضباط، وترسيخ العدل والرحمة في العلاقات؛ فتغدو الممارسة اليومية جزءاً من تكون الإنسان وسيره إلى الله، وتكون الطمأنينة والسعادة من ثمار الهداية والاستقامة، لا تعريفاً للشريعة.

ومن الأصول التي تحفظ قدرة الشريعة على الاستجابة لاختلاف الأحوال: الاجتهاد، ورفع الحرج، ومراعاة الاستطاعة، والرجوع إلى القواعد الكلية عند النوازل. وبهذا تبقى هدايتها حاضرةً مع تغير صور الحياة.

وفي الرؤية الأصولية الإمامية، ترتبط الأحكام بمصالح ومفاسد واقعية يعلمها الله في الأفعال وحياة الإنسان، وإن لم نخط بجميع تفاصيلها. وتُعرف رتبة الحكم من أدلته الشرعية وقواعد الاستنباط، لا من تقدير فردي منفصل عن الوحي.

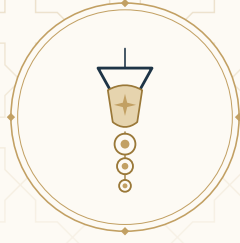
ولا يكلف الله عباده إلا بعد قيام الحجة، ولا يحملهم ما لا يطيقون: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء، 15)، و﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة، 286).

مصادر الشريعة الإسلامية

بَيَّنَّ اللَّهُ أَصُولَ الشَّرِيعَةِ فِي كِتَابِهِ، وَجَعَلَهُ هُدًى وَرَحْمَةً وَمَرْجَعًا أَعْلَى لِلْمُسْلِمِينَ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل، 89).

وفي القراءة الإمامية، لا يُقرأ القرآن منفصلاً عن بيان الرسول (ص)، ولا عن بيان أهل بيته (ع) الذين دلّ الأئمة عليهم بوصفهم امتداداً لهدايته. وقد جمع حديث الثقلين بين كتاب الله والعترة، ودعا المسلمين إلى التمسك بهما: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي... كتاب الله... وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض» (سنن الترمذي، ح 3788).





القسم الثاني

النبوة

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(التوبة، 128).

النبوة من أعظم مظاهر اللطف الإلهي بالإنسان؛ يختار الله من عباده من يحمل رسالته إلى الناس، فيدلهم على ما يصلح دنياهم وآخرتهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، ويقيم أمامهم نموذجاً حياً للعبودية. ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة، 151).

وتتصل هذه الوظيفة بما سبق عن الفطرة والميثاق. فالرسل يذكرّون الإنسان بربه، ويعلمونه ما لا يعلم، ويبينون له كيف يفي بحق العبودية. وفي الخطبة

الأولى من نهج البلاغة يرد، في سياق بعثة الأنبياء: «لما بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول».

ومعنى «ليستأدوهم» أن يطلبوا منهم الوفاء بمقتضى هذا الميثاق. فالرجوع إلى الفطرة ليس اكتفاءً بما نشعر به؛ بل استجابة لهداية يبينها الوحي، ويفهمها العقل، وتظهر في العبادة والعمل. والتذكير لا يلغي التعليم، كما أن وجود الأصل الفطري لا يعني وصول البيان التفصيلي إلى الناس جميعاً على نحو واحد.

ويقتضي مقام النبوة صفات تؤهل صاحبها لحمل الوحي وأداء الأمانة: الصدق، والأمانة، والحكمة، والصبر، والشجاعة، وحسن التدبير، وكمال الخلق. فالناس لا يطمثون إلى رسالة تناقضها سيرة حاملها، ولا تقوم الحجة بمن لا يؤتمن على ما يبلغ. ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج، 75).

ومن هنا تقوم عقيدة العصمة؛ أي حفظ الأنبياء من الذنب والخطأ فيما يتصل بحمل الرسالة وأدائها، وتنزيه سيرتهم عما يهدم الثقة بهم أو يناقض مقام القدوة. وليست العصمة إلغاءً لإنسانيتهم، بل كمالاً في وعيهم واختيارهم وتسديداً من الله لهم.

وفي الرؤية الإمامية تمتد عصمتهم إلى حياتهم كلها، قبل البعثة وبعدها، بما يحفظ صدق القدوة ووحدة الرسالة والسيرة. ويستدل لذلك بالنصوص وبما

يقتضيه مقام الاصطفاء والتبليغ. ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ
عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم، 2-4).

وعندما يبدو ظاهر آية أو رواية منافياً لهذا الأصل، نرجع إلى السياق والقرائن وقواعد فهم النص، ولا نبني حكماً على ظاهر مبتور. كما تُعرض الروايات على القرآن والأصول الثابتة، فلا تقبل رواية تنسب إلى نبي ما يهدم مقام الرسالة أو يناقض ما ثبت من كماله.

النبي محمد بن عبد الله (ص)

ومحمد بن عبد الله (ص) خاتم النبيين، وسيد المرسلين وأفضلهم، وصاحب الرسالة الإسلامية الخاتمة؛ وفيه تجلت الرحمة والصدق والأمانة وكمال الخلق. وقد جعله الله أسوة للمؤمنين، وربط اتباعه بحجة الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب، 21)، و﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، 4).





القسم الثاني

لماذا البلاء؟

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ
أَخْبَارَكُمْ﴾

(محمد، 31).

الابتلاء من مظاهر اللطف الإلهي؛ فالله يهدي الإنسان بالتشريع، ويربيه كذلك بما يمر به في نظام الحياة من شدة ورخاء واختيار. وليس الألم مطلوباً لذاته، وليس كل ألم عقوبة مباشرة أو علامة على منزلة. كما لا يملك الإنسان أن يعين الحكمة الخاصة لحادثة بعينها بلا دليل؛ فالابتلاء يقع داخل شبكة من الأسباب. وفي عالم الحرية يكون الامتحان مجالاً يظهر فيه الصدق ويكتسب العمل معناه: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت، 2).

فالآلام واللذائذ، وطريقة استجابتنا لهما، يمكن أن تعلمنا وتوقظ فينا الصبر والرحمة والعمل والإبداع، وتدفعنا إلى إصلاح ما نستطيع. غير أن هذه الثمرة لا تقع تلقائياً؛ فقد تقرب التجربة إن استجاب الإنسان لها بالوعي والخير، وقد تزيده قسوة إن أساء الاختيار.

وقد تدعونا الشدائد إلى اللجوء إلى الله، وتفتح لنا النعم باب الشكر؛ فيتعمق وعينا بعبوديتنا وفقرنا إليه حين نستجيب. وبذلك قد يجتمع في الابتلاء نمو بعض الكمالات مع تجدد الصلة بالله، من غير أن تكون الشدة الطريق الوحيد إلى الرجوع.

ويذكر القرآن العذاب الأدنى في سياق أخص: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة، ٢١). يفسر «الميزان» العذاب الأدنى بالأقرب الدنيوي، ويجعل إمكان الرجوع قرينة على أنه ليس العذاب المستأصل أو الأخروي؛ ويقرأ «الأمثل» السياق في معنى العقوبات التربوية والتنبيه إلى الرجوع. فالرجوع غاية صريحة في الآية، وليس نتيجة مضمونة لكل من ذاق العذاب. ولا يجعل هذا السياق كل ألم عقوبة أو كل متألم معرضاً عن الله.

وقد ينشأ بعض الضيق من طريقة عيش الإنسان نفسها: يعرض عن هداية الله، ويستبد به التعلق بما يطلب منه الأمان، فيزيده ذلك خوفاً وحرصاً. وسيتضح هذا المعنى في فصل «ذكر الله عز وجل كثيراً». وتقترح نظرية النشأة إمكان قراءة بعض هذا الضيق ضمن مصاديق العذاب الأدنى الذي يفتح باب الرجوع. وهذا جمع تفسيري مقترح بين النصوص، لا تسمية صريحة لهذا الضيق في آية السجدة أو في تفسيرها عند المفسرين.

لكن فتح الباب لا يعني دخوله. فقد يراجع الإنسان نفسه، وقد يحجي خطاه بمزيد من التبرير. وبعد ذكر البأساء والضراء يقول القرآن: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام، ٤٣). وقد نتوالى النعم مع استمرار التكذيب والغفلة؛ ويذكر القرآن الاستدراج في سياق المكذبين (الأعراف، ١٨٢-١٨٣)، ولذلك لا تكون السعة وحدها علامة رضا، كما لا يكون الضيق وحده دليلاً على حال صاحبه.

وليس المطلوب ألا تتألم عند البلاء أو ألا نستمتع بنعم الحياة، فالألم والفرح استجابتان إنسانيتان. المطلوب ألا تتحول اللذة أو الشدة إلى سيد يملك القلب ويعطل العقل والفضائل.

والرضا بقضاء الله لا يناقض السعي إلى إزالة الألم وعلاج أسبابه؛ فهو سكون القلب إلى الله وترك السخط والاعتراض عليه، مع الثقة بعدله وحكمته ورحمته. ولا يعني ذلك محبة الألم أو ترك ما بقي في وسع الإنسان من علاج وإصلاح.

ويقرب ذلك مثال من يمارس رياضة يحبها؛ فهو يشعر بالتعب والألم، لكنه لا يرى هذا التعب نافياً للمعنى الذي اختاره. ومع ذلك يبقى التشبيه محدوداً؛ فالآلام الحياة ليست كلها متساوية، ولا يُطلب من الإنسان أن يتصنع الفرح بها.

وقد يرضى المؤمن بقضاء الله ويرجو ثمرة الابتلاء، مع اعترافه بأن البلاء مؤلم ومع سعيه الجاد إلى دفعه. فالقرب لا يأتي من الألم وحده، بل من الصبر والعمل والرحمة والرجوع إلى الله في أثنائه: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة، 214).

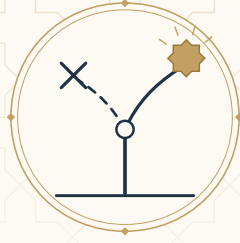
وتؤثر قناعات الإنسان وتفسيره للأحداث في مقدار ما تولده فيه من خوف أو رجاء وفي نوع استجابته لها، من غير أن تخلق الحدث أو تلغي واقعه. ولهذا نحتاج إلى التمييز بين الحقيقة وما تضيفه إليها تصوراتنا، كما يتضح في فصل «الواقعية في الحياة».

فالنعمة والمصيبة واقعان موضوعيان، لكن أثرهما فينا يتأثر بكيفية فهمنا واستجابتنا وبما نستطيع من مراجعة وعمل. ولا تُنسب إلينا الآثار غير المختارة كما تُنسب الاختيارات المقصودة. قد يرى اثنان البحر نفسه؛ فيستدعي عند أحدهما سكيناً، وعند الآخر خوفاً، بحسب خبرته ومعناه لديه.

ومهما طال طور من أطوار الدنيا فإنه يبقى محدوداً ضمن وجود الإنسان الممتد إلى الآخرة. ولا يهون هذا من شأن ألم اللحظة، لكنه يمنعها من أن تكون الأفق كله، ويذكرنا بأن ما يبقى هو ما نصير إليه من خلال استجابتنا.

ولهذا لا يقتصر أثر النعمة أو المصيبة على ما يقع علينا، بل يشمل ما يتكوّن فينا وما يصدر عنا في الاستجابة. وليس كل ذلك مختاراً؛ إنما تتعلق المسؤولية بما علمناه وقصدناه وكان في وسعنا: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء، 35).





القسم الثاني

لماذا الشيطان؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

(الأعراف، 201).

وجود الشيطان لا يعني أن الشر خرج عن حكمة الله، ولا أن للشيطان سلطاناً مستقلاً على الإنسان. فقد أذن الله له بالسوسة والتزين في عالم يقوم على الحرية والابتلاء، لكنه حد سلطانه، وأبقى للإنسان عقله وفطرته ووحيه وقدرته على الاختيار.

فالشيطان يدعو ويزين ويستثمر مواطن الضعف، لكنه لا يجبر أحداً على فعل. قال تعالى على لسانه يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن

دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴿٢٢﴾ (إبراهيم، ٢٢). ومن هنا تبقى المسؤولية على الإنسان، ولا تتحول الوسوسة إلى عذر يلغي الاختيار.

والتحذير من الشيطان مرتبط بالعهد الذي يبين للإنسان وجهته: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس، ٦٠-٦١). ويفسر «الميزان» عبادة الشيطان بطاعته في وسوسته، ويصل هذا العهد بميثاق الربوبية في الأعراف. وفي هذا البناء، يكون مقتضى الإقرار بالله رباً أن نعبد ونطيع هداه، وألا نجعل الإغواء حاكماً على اختيارنا.

ولهذا يستهدف إبليس الصراط نفسه: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف، ١٦). ومقاومته ليست إلغاءً لحاجات الحياة، بل رفضاً لما يصرفنا عن الحق. ولا يعني هذا الجمع أن كل عهد ورد في القرآن هو الواقعة نفسها، أو أن كل خاطر عابر نقض للعهد.

وتكشف قصة إبليس إمكان الانفكاك بين المعرفة والأداة والاستجابة: فالمعرفة تكشف، والأداة تمكّن، والاستجابة تحدد الوجهة. فقد يعرف الإنسان جانباً من الحق، ويملك قدرةً على الفعل، ثم يرفض أو يستكبر؛ من غير أن يعني ذلك الحكم على مرتبته الوجودية أو جعل هذا المثال الدليل الوحيد.

وقد تنمويقظة الإنسان وإرادته حين يقاوم الإغراء ويعود إلى الله بعد الزلل، لكن هذا لا يجعل المعصية مطلوبة ولا ضرورة للنمو. الخير في المقاومة والتوبة والتعلم، لا في الخطأ نفسه.

والأقرب أن نشبه الأمر بطريق فيه منحدرات وعلامات تحذير: وجود الخطر يستدعي اليقظة وحسن القيادة، لكنه لا يجبر السائر على السقوط، ولا يجعل السقوط شرطاً للوصول.

كما لا يصح أن ننسب كل شر إلى الشيطان وحده؛ فالنفس والجهل والعادة والهوى والظلم الاجتماعي وسوء الاختيار أسباب حقيقية أيضاً. والقرآن يذكر وسوسة الشيطان ليكشف أحد أبواب الانحراف، لا ليعفي الإنسان من فهم بقية الأبواب وإصلاحها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر، 42). فالقاعدة أن الإنسان ليس مملوكاً للشيطان، وأن سلطانه يبدأ من الاستجابة المتكررة له.

ويبين السيد الطباطبائي في «الميزان» عند تفسير هذه الآيات أن الاتباع هو الذي يفتح للوسوسة طريقها؛ فلا يبدأ الإنسان «غاوياً» لأن الشيطان استولى عليه قسراً، بل تتراكم اختياراته حتى يصبح أكثر قابلية للاستجابة. وهذا يرد المسؤولية إلى موضعها، ويفتح في الوقت نفسه باب الرجوع والتوبة.

ومن الخطأ أن نحكم على الإنسان كله من خلال ذنب واحد أو جانب ناقص في حياته. فقد يجتمع في الشخص ضعف ظاهر مع أعمال خير كثيرة، ويظل باب التوبة والنمو مفتوحاً. والنظر العادل يرى مجموع المسار، من غير أن يبرر الخطأ أو يمحو ما فيه من خير.

فالعمل الجميل لا يصبح قبيحاً كله لوجود نقص فيه، كما أن وجود جوانب حسنة لا يجعل النقص حسناً. والميزان الصحيح يجمع بين الإنصاف والمحاسبة.

وقد شكّا حنظلة الأسيدي إلى الرسول (ص) تغير حضور الآخرة في نفسه بين مجلس النبي وحياته اليومية. فبين له أن للنفس أحوالاً تتعاقب، وأن دوام الحالة الواحدة ليس شرطاً لصدق الإيمان (صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة). والمقصود فهم طبيعة المجاهدة، من غير أن يتحول تغير الحال إلى يأس أو تبرير للغفلة؛ فباب الرجوع مفتوح: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة، 222).





القسم الثالث

الممارسات الإسلامية

من مشروع نظرية النشأة الإسلامية



القسم الثالث

ما هدفك في الحياة؟

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

(النساء، 134).

حين يُسأل الناس عن أهدافهم الكبرى، نكرر إجابات مثل المال والشهرة والمكانة. وهذه أهداف مفهومة في بيئة تقيس النجاح بما يظهر للناس، لكنها لا تجيب وحدها عن السؤال الأعمق: ماذا نريد من المال والمكانة؟ وما الذي يجعل الحياة ناجحة في ميزان الإنسان كله؟

نحن نسعى إلى الثروة أو المنصب أو الشهرة لأننا نرجو وراءها أمناً وقوة واعتراضاً وسعادة. ولكن هل تحمل هذه الأشياء ما نطلبه منها فعلاً، أم تمنحنا بعض المنافع ثم تترك سؤال الغاية بلا جواب؟

ويخفف المال كثيراً من الضغوط حين يؤمن الحاجات الأساسية ويوسع مجال الاختيار، لكنه لا يحقق وحده صلاح النفس أو طمأنينتها؛ فهو يضيف إلى ما في الإنسان، وقد يوسع مجال خيره أو قلقه بحسب طريقة استعماله ومعنى الحياة لديه.

ولا يعني ذلك أن السعي إلى المال خطأ؛ فالرزق الحلال، والكفاية، والقدرة على إعالة الأسرة وخدمة الناس أمور مطلوبة. المشكلة تبدأ حين يتحول المال من وسيلة إلى غاية تبتلع بقية الحياة، أو حين نطلب منه ما لا يستطيع أن يمنحه.

وفوق حد الكفاية والأمان، لا تتزايد الطمأنينة بالضرورة كلما ازداد الرصيد. فقد تتسع الخيارات، لكن القلب يظل محتاجاً إلى معنى وعلاقات وثقة بالله وتوازن في الحياة؛ وهي أمور لا تُشترى.

كما أن طريق الثروة أو الشهرة قد يتطلب وقتاً وجهداً وتوتراً، وقد يكون ثمنه مقبولاً أو مرهقاً بحسب الطريق والنية والتوازن. لذلك لا يصح أن نغده بإطلاق ولا أن ندينه بإطلاق؛ بل نسأل: ماذا يبني فينا، وماذا يأخذ منا، ولأي غاية نسلكه؟

ومن أكثر ما يتضرر حين يختل هذا التوازن: العلاقات القريبة، والصحة، ووقت العبادة، والحضور مع الأسرة، والقدرة على العطاء. وهذه ليست تفاصيل جانبية؛ فهي جزء من الحياة التي نزع أننا نطلب نجاحها.

وتلقت دراسة هارفارد لتنمية البالغين، التي امتدت متابعتها لعقود، إلى أثر العلاقات الجيدة في الصحة والرضا عن الحياة. وهي ملاحظة نافعة

للتشخيص، لكنها لا تستنفد الرؤية الإسلامية للسعادة؛ فالعلاقة بالناس نفسها تحتاج إلى غاية وقيم وعبودية لله (روبرت والدنجر ومارك شولتز، الحياة الطيبة).

والأسوأ أن يتحول التعلق بالمال أو الشهرة إلى شهوة لا تشبع؛ فكلما نال الإنسان منها طلب مزيداً، كمن يشرب من ماء البحر فلا يزداد إلا عطشاً. وقد روي عن الرسول (ص): «لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى لهما ثالثاً» (صحيح البخاري، ح 6436؛ صحيح مسلم، ح 1048).

وفي المقابل تمنح القناعة الإنسان قدرةً على التمتع بما لديه من غير أن يتوقف عن السعي. فالمطلوب أن يطلب رزقاً كريماً يفي بحاجاته وحقوق من يعول، من غير إسراف، ثم يترك في حياته مساحةً للعبادة والعلاقات والعطاء والمعنى.

وقد يقال إن النجاح أمر نسبي: يراه أحدهم في المال، وآخر في المعرفة، وثالث في العطاء. وفي هذا جانب صحيح؛ فالناس يختلفون في مواهبهم وأدوارهم وصور الإنجاز التي تناسبهم.

غير أن اختلاف الصور لا يعني غياب الحقيقة المشتركة. فكل إنسان يحتاج إلى معنى وكرامة ومحبة وانسجام داخلي تحت مرجعية الحق والفضيلة، وإلى صلة بخالفه؛ كما يحتاج البدن إلى ما يلائمه وإن اختلفت الأطعمة. وكلما ازداد هذا الانسجام تحت الحق قلت أسباب التشتت والتنازع الداخلي، وازداد نصيب النفس من الثبات والطمأنينة، من غير أن يعني ذلك غياب الحزن أو الألم. ولهذا قد تعدد الطرق المشروعة، بينما تبقى الوجهة واحدة.

وكثيراً ما يحقق الإنسان نجاحاً كان يراه نهاية الطريق، ثم يكشف أن الظماً باقٍ، فينتقل إلى هدف آخر ثم آخر. المشكلة ليست في الإنجاز، بل في تحميله وظيفة الغاية؛ فالإنجاز يفرح ويخدم، لكنه لا يملأ وحده فراغ المعنى.

وملاحظة استقرار القلق والاضطراب لدى بعض من يملكون وفرةً وفرصاً واسعة لا تثبت سبباً واحداً للمعاناة، لكنها تنبه إلى أن الرفاه والإنجاز الخارجيين لا يكفيان وحدهما لبناء الطمأنينة.

وتفيدنا الدراسات النفسية والاجتماعية في تشخيص بعض العوامل التي ترتبط بالرضا أو الألم، غير أنها لا تحدد وحدها غاية الوجود. فالسؤال عن معنى الحياة أوسع من قياس المزاج، ويحتاج إلى معرفة الإنسان بخلقه وبالمصير الذي يتجه إليه.

وكما أن الارتواء له شروط واقعية، فإن للسعادة والطمأنينة شروطاً متصلة بطبيعة الإنسان وفطرته ومساره. ولا يعني ذلك وصفة واحدة جامدة للجميع، بل يعني أن الطريق لا ينفصل عن الحق والخير والعبودية مهما اختلفت تفاصيله.

ولهذا لا تُبنى السعادة والطمأنينة في وقت معزول عن بقية الحياة؛ فطريقة نوم الإنسان وعمله وعلاقاته وعبادته وطلبه للرزق تتداخل كلها في تكوينه. والغاية الصحيحة تعيد ترتيب هذه المجالات بدل أن تضيف إليها نشاطاً منفصلاً.

الغاية والسعادة

ينبغي أولاً التمييز بين السعادة والفرح والرضا عن الحياة والطمأنينة. فالفرح والحزن حالتان تبدلان، والرضا عن الحياة تقويم شعوري نسبي. أما الطمأنينة

فهي استقرار النفس والقلب إلى الله، وثمره أصيلة ومظهر متدرج وعلامة نوعية داخلية للقرب؛ ولا تعني غياب الحزن أو الألم، ولا يثبت الهدوء الانفعالي الظاهر وحده منزلة صاحبه. والسعادة نتصل بصلاح النفس وازدهارها وغايتها، ولذلك قد يكون للإنسان نصيب حقيقي منها وهو يمر بحزن مشروع.

يفرح الإنسان بنجاح أو لقاء أو هدية، ويحزن لفقد أو خبر مؤلم. وهذه الانفعالات طبيعية ومهمة، لكنها لا تختصر تقييمه لحياته كلها.

فالفرح والحزن استجابتان إنسانيتان للأحداث والمعاني؛ يفرح الإنسان بخبر سار ويحزن لفقد أو ألم، ولا يدل الحزن في ذاته على الشقاء ولا الفرح على سلامة المسار. المهم هو ما تكشفه هذه المشاعر، وكيف نفهمها ونستجيب لها.

السعادة الحقيقية هي صلاح النفس وازدهارها الوجودي بانتظام قواها وكماالاتها في الحق والعبودية؛ فتنتظم معرفتها وإيمانها ومحبتها وإرادتها وفضائلها وعملها في وجهة واحدة. وهي متدرجة تنمو داخل مسار السعي والابتلاء في الدنيا، ويكتمل مآلها في الآخرة بفضل الله وعطائه غير المجذوذ.

ويصف القرآن الناس يوم القيامة بالسعيد والشقي: ﴿فَنَنْهَمُ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ﴾ (هود، 105). فسعادة الإنسان أن تصلح نفسه وتحقق بالكمال الملائم لفطرتها في طريق الله، وشقاؤه أن يحرم هذا الخير ويبتعد عن غايته.

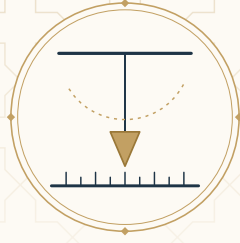
والسعادة بهذا المعنى ليست لذة دائمة ولا غياباً للألم، بل صلاحاً ينمو داخل المسار مع صدق الاتجاه إلى الحق. لذلك قد تجتمع مع الحزن والألم، كما قد

يجتمع السرور مع فساد الوجهة. قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر، 27-28).

أما الفلاح فهو الظفر بالغاية والنجاة وتمام العاقبة؛ ولذلك دلالاته الأخروية أقوى من دلالة الفرح أو الرضا العابر، وإن ظهرت آثاره في الدنيا.

فكيف يسير الإنسان إلى سعادة وطمأنينة لا تنفصلان عن غايته؟ قبل الإجابة، نحتاج إلى تمييز ما هو حقيقي في حاجتنا وما تضيفه الأوهام والتصورات الاجتماعية إليها؛ وهذا ما يتناوله الفصل التالي.





القسم الثالث

الواقعية في الحياة

﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾

(النساء، 120).

تؤثر القناعات الراسخة في الطريقة التي نرى بها الحياة ونستجيب لها. قال تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء، 84). لكن تأثير القناعة لا يعني أن التصور يصنع الواقع من العدم؛ فقد يقربنا منه، وقد يحجبه عنا. والسؤال هنا: كيف نميز بين الحقيقة وما نضيفه إليها من وهم؟

يعرف الطب أثر التوقعات في بعض الأعراض والاستجابات، ويذكر في هذا السياق «تأثير الدواء الوهمي». وتكشف هذه الظاهرة أن ما نعتقده قد يؤثر في خبرتنا البدنية والنفسية، لكنها لا تعني أن المرض مجرد خيال، ولا أن

الاعتقاد يغني عن التشخيص والعلاج والأسباب الواقعية (فينيس وآخرون، مجلة ذا لانسيت، 2010).

وكما قد يخفف التوقع بعض الأعراض، قد يزيد الخوف والتوهم الإحساس بها. غير أن هذا الأثر له حدود؛ فلا تتحول النار إلى برد لأننا تخيلناها كذلك، ولا يسقط قانون الواقع لمجرد رغبتنا في نتيجة أخرى.

وكثير من حاجاتنا الحقيقية تختلط بتصورات اجتماعية ونفسية تضخمها أو توجهها إلى غير موضعها. فالإنسان يحتاج إلى الأمان والتقدير والانتماء، لكنه قد يظن أن صورة معينة من المال أو المظهر أو النفوذ هي الطريق الوحيد إليها.

وهذا التزيين قد يأتي من هوى النفس، ومن ضغط المجتمع، ومن وسوسة الشيطان الذي يعد ويمني: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (الحجر، 39). ولا يعفينا ذكر الشيطان من فحص الأسباب الأخرى ولا من مسؤولية الاختيار.

فالمال حقيقة نافعة، والنجاح المهني حقيقة، لكن القيمة الرمزية التي نعلقها عليهما قد نتضخم حتى يصبح الرقم في الحساب مقياساً لقيمة الإنسان. عندئذ لا يكون الوهم في وجود المال، بل في المعنى المطلق الذي نسبناه إليه.

والأمر نفسه في المكانة والمظهر والعلامات التجارية؛ قد تكون لها منافع أو أذواق مشروعة، لكن الوهم يبدأ حين نستعير منها كرامتنا، أو نعامل الأسماء الاجتماعية كأنها حقائق تحدد منزلة الإنسان عند الله.

حتى الشهوات الطبيعية قد تتضخم بفعل التصورات المتكررة وربطها بالقوة أو القبول أو إثبات الذات. لذلك لا يكفي أن نشعر بحاجة حتى نحكم على حجمها ومعناها؛ بل نحتاج إلى فهم أصلها والغاية التي توجهها.

وهذا ما يحذرنا الله منه؛ فقد يضل سعي الإنسان وهو يظن أنه يحسن صنعاً، وقد تتحول زينة الدنيا إلى تفاخر وتكاثر يحجبان عنه حقيقتها: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف، 103-104).

وتكمن أهمية ذلك في أن الواقع لا يتبدل لمجرد تصورنا له. يمكنك أن تتخيل النار باردة، لكنها تبقى حارقة؛ ويمكنك أن تثوهم أن النجاح الظاهر سيحل كل قلقك، ثم تكشف التجربة حدود هذا الوعد.

وإدراك الواقع كما هو لا يدعونا إلى احتقار الدنيا أو الانسحاب منها، بل إلى التعامل معها بحكمة: نعرف منافع الأشياء وحدودها، ونأخذ بالأسباب، ولا نمح الوسيلة مقام الغاية.

وفي الرؤية الإسلامية لا ينحصر الواقع في المحسوس؛ فالبرزخ والآخرة من حقائق الغيب التي يخبر بها الوحي، وأفعالنا في الدنيا تصوغ علاقتنا بهما. والدنيا بهذا المعنى طور حقيقي ذو أثر، لكنها ليست نهاية الطريق.

والمسافر العاقل لا ينكر الطريق الذي يسير فيه، ولا ينسى الوجهة التي يقصدها. فهو يعمر وقته في الرحلة ويستعد للوصول معاً، وكذلك يعيش المؤمن دنياه بجدية، من غير أن يجعلها موطنه الأخير.

والله لا يحيط به زمان أو مكان، بل الزمان والمكان قائمان به. وتدل الآية على إحاطته وقيوميته وقربه غير المكاني من الإنسان: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق، 16).

الله هو الحق الذي يقوم به كل موجود، ونحن مخلوقاته المفتقرة إليه، وتظهر في الخلق آثار قدرته. ولهذا يقول الإمام الحسين (ع) في دعاء عرفة: «إلهي، كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟» (دعاء عرفة، في إقبال الأعمال).

وتكشف قصة موسى والعبد الصالح أن رعاية الله قد تجري من خلال أحداث وأشخاص وأسباب لا نرى حكمها كاملة في لحظتها. وهذا لا يلغي السنن، بل يعلمنا أن علمنا بها محدود، وأن المدد الإلهي قد يأتينا من خلال السنن والأشخاص والأسباب على وجوه تتجاوز إدراكنا.

وحين يغفل الإنسان عن قيومية الله وعن افتقاره الوجودي إليه، قد يمر بأعظم النعم من غير أن يراها. أما استحضار صلته بالله فيفتح له معنى مختلفاً للحياة: أنه في كل لحظة قائم بمن لا يغيب عنه، ومخاطب بهداية لا تنقطع.

ومن هنا تنبع الطمأنينة والقوة، لا لأن المؤمن يضمن أن تجري الأحداث كما يريد، بل لأنه يعلم أن شيئاً لا يغيب عن علم الله، وأن رحمته محيطية، وأن ما يفوته من الدنيا لا يقطع صلته به. وفي دعاء عرفة: «إلهي، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً» (دعاء عرفة، في إقبال الأعمال).

وفي الرؤية الإمامية، تعمق هذه الصلة من خلال محبة الرسول (ص) وأهل بيته (ع) والافتداء بهم؛ فهم هداة إلى طريق الله ونماذج للعبودية في الحياة.

وحين يدرك الإنسان سعة هذا الواقع تتغير علاقته بالدنيا: يعمل فيها، ويستمتع بطبيعتها، ويؤدي مسؤوليته، لكنه لا يجعلها أكبر همه ولا مبلغ علمه. فيتسع معنى الحياة بدل أن يضيق في العاجل وحده.

والسير إلى الله يقتضي أن يعرف الإنسان نفسه وفقرها وقابلياتها، وأن يميز ما هو حقيقي مما تصنعه الأهواء والتصورات. وقد رُوِيَ عن الإمام علي (ع): «من عرف نفسه فقد عرف ربه» (غرر الحكم، ح 7946).

ومن أنفع وسائل تنمية هذه البصيرة التفكير المستمر في الكون والوجود، وفي العلاقات والأحداث، وفي النفس وما يعتمل فيها من مشاعر ودوافع وما يصدر عنها من قرارات ونتائج.

ولأن جانباً من الواقع غيب لا تناله الحواس وحدها، نحتاج إلى الوحي مع العقل والتجربة. فالقرآن والأدعية الماثورة لا يقدمان بديلاً عن التفكير، بل يفتحان أمامه أفقاً لا يستطيع أن يبلغه وحده.

وتعرض آيات سورة القصص قصة قارون لتبين كيف يتبدل تقدير الواقع حين ينكشف ميزان الآخرة: ﴿نَخْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * نَخْسِفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ

اللَّهُ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ
وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
لَخَسَفَ بَنَاهُ وَيَكُنَّ لَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا
يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣-٧٩﴾ (القصص، 79-83).





القسم الثالث

السير إلى الله

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فُتْلَاقِيهِ﴾

(الانشقاق، 6).

يعود بنا هذا الفصل إلى السؤال عن غاية الحياة: كيف يتحول إيمان الإنسان بالله إلى حركة يومية تقربه منه، من غير أن تنفصل العبادة عن العمل، ولا الآخرة عن الدنيا؟

السير إلى الله هو أن تتجه حياة الإنسان كلها نحو العبودية: في معرفته واختياره وعمله وعلاقاته. ولا يعني ذلك مساراً منعزلاً عن الحياة، بل طريقة في عيشها، يصحح فيها الإنسان وجهته كلما انحرف، ويزداد وعياً بافتقاره إلى الله ومسؤوليته أمامه.

والفطرة نحو مخصوص من خلقه الإنسان؛ تتضمن أصلاً حضورياً إجمالياً للحق، وحباً أصيلاً للكمال المطلق، واتجهاً إلى العبودية. وليست معرفةً حصولية تفصيلية أو وعياً دينياً مكتملاً، ولا تجبر الإنسان على الاستجابة؛ لذلك قد تختلط آثارها بالهوى والعادة والمحب، من غير أن يقتلع ذلك أصلها.

ولهذا يحتاج ظهور الفطرة وتعيين متعلقها إلى بيان الوحي وتمييز العقل والتزكية، حتى لا يستعيز الإنسان عن القرب من الله بتعظيم الذات أو مطاردة صورة محدودة من القوة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم، 30).

والاستقامة هي أن يستمر الإنسان في العمل بمقتضى هذا الهدى. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت، ٣٠). وتقرأ النظرية هذه الاستقامة، في ضوء ما سبق عن الميثاق والعهد، استمراراً في الوفاء بمقتضى الإقرار بربوبية الله. فالصراط يبين الطريق، والاستقامة تصف سير الإنسان عليه. وهذه صلة مستنبطة من جمع النصوص، لا تفسير مباشر لآية فصلت بواقعة الميثاق.

ويظهر الوفاء في العبادة والعدل والحقوق معاً، ففي وصايا الأنعام يرد الأمر بالوفاء بعهد الله، ثم الأمر باتباع صراطه المستقيم (الأنعام، ١٥٢-١٥٣). ولا تعني الاستقامة اكتمال النفس في لحظة، بل ثباتها على الحق وتصحيحها ما يظهر من خطئها، كما يجمع قوله تعالى بين الاستقامة والتوبة: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود، ١١٢).

وتزداد الطمأنينة حين تستقر النفس والقلب إلى الله، وتنظم قواهما ووجهتهما في العبودية بدل أن تتنازعهما غايات متعارضة. فهي ثمرة أصيلة ومظهر

متدرج للقرب، مع بقاء إمكان الحزن والقلق والابتلاء؛ إذ لا تعني الطمأنينة غياب التأثير الإنساني، بل ثبات المرجع تحت هذه الأحوال.

ويتصل هذا السير بما يسميه المشروع «الصدق الذاتي». وجوهره تصادق جهات النفس الأربع وتآلفها تحت مرجعية الحق ومقتضى الفطرة: يفهم العقل الحق، ويقبله القلب، وتتجه الروح إلى الله وغاية العبودية، ويجسده الإنسان ببدنه في القول والعمل. أما مواجهة النفس، وكشف الفجوات بين المعرفة والمحبة والنية والسلوك، والمحاسبة والتوبة والإصلاح، فهي آليات هذا المسار لا تعريفه نفسه. ويضبط كتاب «نظرية النشأة الإسلامية» تعريف هذا القانون وحدوده في الباب الرابع؛ ويتوسع «الذات الخالدة» في مساره الداخلي، ويقرب «لا حدود» تطبيقاته.

بهذا يكون الصدق الذاتي جانباً من صدق الوفاء، لا مجرد شعور بالانسجام مع النفس. فالقرآن يصف قوماً بأنهم ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب، ٢٣، موضع الشاهد)، وتجمع آية البر الوفاء بالعهد والإيمان والبذل والثبات، ثم تصف أصحابها بالصدق (البقرة، ١٧٧). أما شرح هذا الصدق بتصادق جهات النفس فهو صياغة النظرية.

كيف يكون السير إلى الله؟

يتكامل السير في مجالين: هداية تشريعية تبين للإنسان ما يرضي الله، ومجال تكويني يتحرك فيه بالأسباب ويواجه الاختيار والابتلاء. فالشريعة تمنح الحركة ميزانها، والحياة تمنح الإنسان ميدان تطبيقها.

والأمر أشبه برحلة تحتاج إلى وجهة وطريق معاً؛ فعرفة الوجهة من غير حركة لا توصل، والحركة من غير دليل قد تسرع بالإنسان في الاتجاه الخطأ. ولذلك يجمع المؤمن بين صدق القصد، والعمل الجاد، والرجوع المستمر إلى هداية الله.

ويبدأ ذلك بتصحيح الأفكار والمعتقدات، ثم تحويلها إلى عادات ومواقف، وحماية القلب والعقل من المؤثرات التي تفسد الوجهة، من غير وهم إمكان عزل النفس عن العالم أو «تعقيم» البيئة كلها. فالمطلوب وعي واختيار وإصلاح داخل الحياة. ﴿وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر، 1-3).

تأمل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة، 257). والله نور السماوات والأرض.

والقرب من الله يححر الإنسان من عبودية الهوى والخوف من الناس والتعلق المرضي بالنتائج، لكنه لا يجعله خارج التأثير الإنساني ولا يحو مشاعره. فالكمال ليس في ألا يحزن أو يقلق أبداً، بل ألا تفقد هذه المشاعر وجهته ولا تستولي على إرادته.

وترد في المناجاة الشعبانية المروية عن الإمام علي (ع) هذه العبارة: «إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تحرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك» (المناجاة الشعبانية، في إقبال الأعمال).

وفي هذا الطريق ينمي الإنسان ما يصير كيفيةً في نفسه من علم وفهم وإرادة وملكات، وما يتحقق فيها من حكمة وعدل ورحمة وسائر الكمالات، ويطور في الوقت نفسه ما يوسع مجال فعله من موارد وقدرات أولية وفرص. وما تحقق في النفس يمنح الاستجابة سعتها، والوجهة تمنحه قيمته الأخلاقية. ويزداد الإنسان إدراكاً لعبوديته وافتقاره الوجودي إلى الله؛ فلا تصبح القدرة استقلالاً، ولا يصبح الشعور بالافتقار عجزاً، بل يجتمع السعي والتوكل في حركة واحدة.

وقد خلق الله الحياة في عالم تتجاور فيه الأضداد والابتلاءات، لتكون مجالاً حقيقياً للاختيار والعمل. وهذه الظروف لا تدفع الإنسان تلقائياً إلى الكمال؛ فقد يستجيب لها بالخير أو بالشر، وإنما ينو حين يحسن الاختيار ويتعلم ويعود إلى الله.

كما جعل الناس مختلفين في استعداداتهم وقدراتهم وأحوالهم وبيئاتهم، ليبتلي كل واحد فيما آتاه ويفتح بينهم أبواب التعارف والتكامل والخدمة. وتُقدَّر مسؤولية كل منهم بما بلغه وما كان في وسعه: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات، 13)، و﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة، 48).

ولذلك أيضاً سخر الله لنا من سنن الكون وموجوداته ما يعيننا على أداء أمانتنا والسير إليه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجنابة، 13). وجعل ما على الأرض زينة واختباراً: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف، 7). ثم أمرنا بالسعي فيها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا

مِنْ رَزَقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك، 15). وفي هذا الميدان نجسد عبوديتنا لله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، 56)، ونؤدي أمانة الاستخلاف ونحن في فقر دائم إليه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة، 30).

ولأن الإنسان مكلف بهذه الأمانة، لم يتركه الله من غير بيان؛ فدعاه إلى الفرار إليه، والتسابق في الخيرات، والتنافس في القرب. وهذه الدعوة لا تلغي اختلاف الأدوار والقدرات والظروف، بل تمنح الجميع وجهة مشتركة، وتربط مسؤولية كل إنسان بما آتاه الله وما كان في وسعه.

محاور السير إلى الله

ويمكن جمع محاور السير العامة في أربعة مجالات متداخلة، يمارسها الإنسان في حياته اليومية بقدر من التوازن والوعي:

◆ السعي لإشباع حاجاتنا البدنية والنفسية بتوازن واعتدال:

المحور الأول هو السعي في هذه الدنيا لإشباع حاجاتنا البدنية والنفسية بتوازن واعتدال. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف، 32)؛ وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك، 15).

◆ تنمية كمالنا وقدراتنا:

والمحور الآخر هو تنمية ما يتحقق في النفس من قوى وكالات، وما يوسع مجال فعلها من موارد وأسباب. فالفهم الراسخ والإرادة المهذبة والمهارة التي تصير ملكةً تدخل في قوة النفس، أما الفرصة والمال والمنصب والقدرة الأولية فتوسع المجال وتكتسب قيمتها من الوجهة التي تخدمها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة، 35)، وقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، 151).

◆ تجاوز الأنانية بالعطاء والإصلاح:

قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران، 92)، ودعانا إلى حمل رسالة الخير والإصلاح للبشرية جمعاء. ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران، 110).

◆ ذكر الله وعبادته:

ويبقى ذكر الله وعبادته والارتباط به هو المحور الأساس للسير إلى الله. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة، 10).

ولم تكتف الشريعة ببيان هذه المحاور، بل رتبت عبادات وأخلاقاً وأحكاماً تعين الإنسان على ممارستها. كما جعل الله العالم قابلاً للعمل والتعلم والأخذ بالأسباب، من غير أن تكون عوامل التكوين والبيئة قوةً آليةً تحدد تكونه أو تقوده إلى الخير رغماً عنه.



محاور السير إلى الله: أربعة مجالات متداخلة يمارسها الإنسان في حياته اليومية

الطرق الموصلة إلى الله

وما سبق يبين المنهج العام للسير، أما طرائق تطبيقه فتتعدد بتعدد الناس واستعداداتهم وظروفهم؛ فلكل إنسان نقاط قوة وضعف، وبيئة وتجربة وتحديات لا تتطابق تماماً مع غيره.

ولهذا تختلف الممارسات التي تعين كل إنسان على القرب من الله بحسب خصائصه وواجباته وواقعه. ولا يعني اختلاف الطريق اختلاف الغاية؛ فالميزان أن يكون العمل صالحاً يرضاه الله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ (النمل، 19).

والسير إلى الله قد يحمل لذة القرب ومعنى الطمأنينة، لكنه يظل مجاهدةً فيها تعب وتردد وابتلاء. وهو يعين الإنسان على حمل القلق والحزن وتوجيههما، من غير أن يعني أن كل ألم نفسي يزول بمجرد العبادة أو أن طلب المساندة والعلاج يناقض الإيمان.

ويمكن تقريب ذلك بالرياضة: المداومة الهادئة تنمي القدرة أكثر من الاندفاع القصير، ومع الزمن يذوق الإنسان أثر ما ثابر عليه. وكذلك تنمو لذة العبادة والمحبة بالممارسة والصدق والرفق، كما جاء في مناجاة المحبين: «مَنْ ذَا الَّذِي ذاقَ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا؟» (الصحيفة السجادية، مناجاة المحبين).

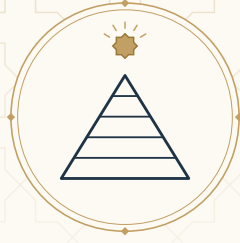
غير أن التشبيه يقف عند هذا الحد؛ فالسير ليس وصفة لإزالة كل ألم، بل علاقة بالله تعيد ترتيب الألم والفرح داخل معنى أوسع، وتمنح الإنسان قوة على العمل والصبر والرجوع.

والمسلم يملك في الصلاة والصوم والذكر والصدقة وسائر العبادات أبواباً قائمة لهذا الطريق. والمطلوب ليس إضافة عبء تدريجي جديد إلى حياته، بل إحياء ما يمارسه بالنية والوعي، وربطه بخلقه وعمله ومسؤوليته.

يبقى السؤال إذن: ما المبادئ التي تحفظ هذا السير من الاندفاع والاختلال، وتجعله قابلاً للاستمرار في واقع الحياة؟

تتناول الفصول التالية هذه المبادئ والممارسات، في إطار يجمع الحب والثقة والتوازن والإخلاص والرفق.





القسم الثالث

مبادئ السير إلى الله

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

(آل عمران، 31).

مبادئ السير إلى الله



المبادئ التي تحفظ هذا السير من الاندفاع والاختلال، وتجعله قابلاً للاستمرار في واقع الحياة

حب الله

حب الله والتوجه إليه من أعمق دوافع السير، لكنه لا يظهر دائماً بصورة شعورية واحدة. فقد يبدأ في طلب الحقيقة والخير والجمال والرحمة، ثم يزداد وضوحاً كلما عرف الإنسان ربه ونقى وجهته من الهوى. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا﴾ (الروم، 30).

وقد تختلط هذه الدوافع بحب المال أو المكانة أو النفوذ، فلا يكون المطلوب إلغاء حاجات الحياة، بل ترتيبها: تصبح الوسائل خادمةً للخير، ولا تتحول إلى معبودات تستولي على القلب.

وبمقدار معرفة الإنسان بالله بوصفه مصدر الوجود والغنى والكمال، يعيد قراءة ما يحبه في العالم؛ فيرى الجمال نعمة تدله، والقوة أمانة، والمال وسيلة، ولا يجعل شيئاً منها غاية مستقلة. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر، 15).

ومن معرفة الخالق ومعرفة النعمة ينشأ الشكر. ولا يعمل الشكر في النفس آلياً، بل يحتاج إلى انتباه وذكر واستجابة، حتى يتحول من كلمة إلى طريقة في استعمال ما وهبنا الله.

وحين يصدق الشكر تنمو المحبة، فتترسخ العبودية في القلب ويتعمق قرب العبودية على أساس من المعرفة والاختيار، بدل أن تُعاش بوصفها حملاً خارجياً ثقيلاً؛ لأن الإنسان يرى في أمر الله طريقاً إلى حقيقته، لا قيداً مفروضاً من خارجها.

قال الإمام علي (ع) في نهج البلاغة: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكُلُّ مَعْرِفَةٍ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكُلُّ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكُلُّ تَوْحِيدِهِ إِخْلَاصٌ لَهُ...» (نهج البلاغة، الخطبة الأولى).

فالمبدأ الأول أن يتعهد الإنسان محبته لله: يعرفه، ويذكر نعمه، ويتأمل أسماءه وآياته، ويترجم الحب اتباعاً وعملاً. فليست قوة الانفصال وحدها هي المقياس، بل صدق الأثر في الحياة.

وتتم هذه المعرفة بالمطالعة والتفكير والعبادة وخدمة الناس وممارسة الحياة وفق هداية الإسلام؛ فكل باب صادق إلى الخير يمكن أن يزيد الإنسان معرفةً بربه إذا صحت وجهته.

ولا تنافس محبة الله حاجات الحياة المشروعة، بل تمنحها ترتيباً ومعنى. فالعمل والأسرة والصداقة والراحة والعلم لا تقف خارج الطريق؛ إنما تدخل فيه حين تُعاش بميزان العبودية.

الثقة بالله

يبدأ السير بلطف الله وهدايته قبل جهد الإنسان، ثم يستجيب الإنسان بما أوتي من حرية. وفي دعاء أبي حمزة: «بِكَ عَرَفْتُكَ، وَأَنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ، وَدَعَوْتَنِي إِلَيْكَ» (دعاء أبي حمزة الثمالي، في إقبال الأعمال). وقد وعد الله من صدق في المجاهدة بالهداية، على ما تقتضيه حكمته، فيفتح له من سبلها ما لم يكن يراه. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت، 69).

والثقة بالله لا تعني أن نفهم كل ما يقع لنا، ولا أن نعد كل ألم علامة رضا أو كل نجاح علامة قرب. معناها أن نثبت على الإيمان برحمته وحكمته ونحن نأخذ بالأسباب ونواجه الابتلاء، من غير أن نحول جهلنا بالتفصيل إلى سوء ظن به.

وتقوى هذه الثقة بالمعرفة والذكر وتجربة التوكل الصادق، كما تقوى حين نراجع نعم الله السابقة ولا نحصر رؤيتنا في لحظة الأزمة. واستحضار صلة الإنسان بالله وافتقاره إليه يمنح القلب سكينه، لكنه لا يلغي الحزن الطبيعي ولا الحاجة إلى من يعيننا.

وحين تعرض للإنسان وساوس أو أسئلة مؤلمة، لا يحتاج إلى قمعها أو تجاهل العقل، بل إلى أن يضعها أمام ما عرفه من حكمة الله ورحمته، ويسأل ويتفكر ويستعين، من غير أن يسمح للخيرة المؤقتة بأن تهدم أصل الثقة.

قد نعجز عن تفسير حادثة بعينها، كما يعجز الطفل عن فهم بعض ما يفعله من رعاها، غير أن إيماننا بالله لا يقوم على تشبيه محدود، بل على معرفتنا بأنه الخالق العليم الرحيم، وأن الخير كله بيده. وفي مناجاة الراجين: «كَيْفَ أَرْجُو غَيْرَكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدِكَ؟» (الصحيفة السجادية، مناجاة الراجين).

ولا يعني ذلك أن نجزم بأن كل حرمان وقع لنا هو أفضل صورة ممكنة، أو أننا نعرف حكمته الخاصة، بل أن نقر بحدود علمنا، ونستمر في الدعاء والعمل، ونثق بأن الله لا يظلم عباده ولا يتركهم بلا رحمة.

وقد تأتي الإجابة على غير الصورة التي طلبناها، وقد يفتح الله باباً ويغلق آخر، ويبقى واجبنا أن ننظر ونتعلم ونستشير، لا أن ننسب كل نتيجة إلى قراءة متعجلة للغيب. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك، 14).

ففي الشدة لا نفقد صلتنا بالله، وفي السعة لا نستغني عنه. قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام، 12).

والثقة بالله روح التوكل، لكنها لا تعني ترك التخطيط أو العلاج أو طلب الرزق؛ فهذه كلها من الأسباب التي أمرنا بها. والتوكل أن يأخذ الإنسان بالأسباب المشروعة بقدر علمه ووسعه، ولا يعتمد قلبه عليها استقلالاً ولا يظن أنها تضمن المآل.

ومن معاني التوكل ألا يتخذ الإنسان من دون الله وكلاً يعتمد عليه استقلالاً، مع بقاءه مأموراً بالأخذ بالأسباب والاستعانة بالناس فيما يقدرون عليه: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِلاً﴾ (الإسراء، 2).

التوازن

تصور شخصاً يدرّب عضلة واحدة ويهمل بقية بدنه؛ لن يصنع ذلك لياقة متوازنة مهما قويت تلك العضلة. وكذلك الإنسان إذا نما في جانب وأهمل جوانب مسؤوليته الأخرى؛ فقد ينجح مهنياً ويضعف أسرياً، أو ينشط اجتماعياً ويهمل تزكية نفسه.

وتختلف مراتب الأعمال وأولوياتها، لكن الحياة تحتاج إلى ميزان يحفظ حقوق النفس والأسرة والعمل والمجتمع والعبادة: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن، 7-8).

وقد يظهر الخلل حين يطغى جانب مشروع على بقية المسؤوليات؛ فيستغرق الإنسان في الدراسة أو العمل أو النشاط العام، ثم يضعف نصيبه من تركية نفسه أو رعاية أسرته أو حقوق بدنه وحاجاته النفسية والروحية.

وقد يقع العكس؛ فينحصر اهتمامه في إصلاح ذاته أو أسرته حتى يغيب عن واجبه تجاه المجتمع، أو يطلب النجاح المهني على حساب كل ما عداه. والمشكلة ليست في قوة جانب بعينه، بل في تحوله إلى عذر دائم لإهمال حق آخر.

ولهذا يحتاج الإنسان إلى مراجعة دوافعه: هل اختار هذا المجال لأنه الأهم في مرحلته، أم لأنه الأسهل والأحب إلى نفسه؟ وهل ينسجم انشغاله به مع الواجبات والحقوق التي تحيط به؟

وقد يكون ميل الإنسان إلى مجال معين باباً مشروعاً للعطاء والتميز، لكن الميل وحده لا يكفي ليحدد الأولوية دائماً؛ فلا بد أن يُوزن بالواجب والظرف وحقوق الآخرين والغاية التي يعمل لها.

ونحن ندخل الحياة بحاجات بدنية ونفسية وروحية: نحتاج إلى الطعام والأمان والمحبة والمعرفة والراحة والمعنى. وهذه الحاجات لا تتعارض في أصلها، لكن اختلال ترتيبها أو الإفراط في إحداها يرهق الإنسان.

ولا تكون الحاجة إلى الأمان والمحبة والراحة عيباً أو ذنباً. فالقرآن يذكر ضعف الإنسان في سياق التخفيف عنه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء، ٢٨). أما افتقاره الوجودي إلى الله فحقيقة تشمل القوي والضعيف، ولا تعني العجز النفسي أو العذاب. وما يحتاج إلى إصلاح هنا هو أن يستبد خوف أو تعلق بالقرار، فيحمل الإنسان على ترك حق أو تجاوز حد؛ لا وجود الحاجة نفسها. فالتهديب يرعى الحاجات ويضبط تلبيةها، ولا يطلب محوها.

والبدن أمانة؛ فهو جزء من وجود الإنسان الدنيوي ومجال فعله. وتقتضي الأمانة حفظه ورعايته وتنمية قدرته واستعماله في الحق، بما يشمل الغذاء والنوم والراحة والحركة والعلاج والترويح والاستمتاع المشروع في مواضعه وحدوده. فالعناية به ليست خروجاً من السير إلى الله، بل من شروط الوفاء بمسؤولياته.

ولهذا لا يطلب السير إلى الله إلغاء حاجات البدن أو الانسحاب من الحياة، بل إشباع الحاجات بميزان من غير إفراط ولا تفريط. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف، 32).

ولا يلزم أن يحضر كل جانب بالقدر نفسه في كل يوم؛ فالتوازن يُقرأ على امتداد الزمن وبحسب العمر والوسع والظرف. المهم ألا يتحول انشغال مشروع إلى إهمال دائم لحق آخر.

وروي عن الإمام موسى الكاظم (ع) توجيهه إلى توزيع الوقت بين مناجاة الله، وطلب المعاش، وصحبة الثقات الذين يكشفون العيوب بصدق، وراحة مباحة تعين الإنسان على سائر مسؤولياته (تحف العقول، وصيته لهشام).

الإخلاص لله

قد يمارس الإنسان عملاً نافعاً بنية طيبة فيؤجر عليه، لكن إخلاصه لله يعني أن يكون رضا الله مقصده الأعلى، وأن تبقى مقاصده الطبيعية والمشروعة تحت هذا الميزان، لا أن تستقل عنه. وبهذا يحفظ الإنسان عمله من طلب الصورة والثناء. والنية تمنح الفعل وجهته، لكنها لا تصحح وسيلةً باطلة ولا ترفع حقاً لازماً.

وقد يكون العمل القليل الخالص أعمق أثراً من عمل كبير تشوبه الرغبة في الظهور. وليس المقصود قياس الثواب بأرقام، بل تذكير الإنسان بأن الله ينظر إلى القلب والعمل معاً. وقد ورد: «نية المؤمن خير من عمله» (الكليني، الكافي، ج 2، باب النية).

الرفق بالنفس

قال الرسول (ص): «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه» (صحيح مسلم، ح 2594).

وقد يدفع الحماس بعض الناس إلى تحميل أنفسهم عبادات وأعمالاً فوق طاقتهم، أو إلى مقارنة طريقهم بمقامات غيرهم وتجاربهم. والنتيجة قد تكون انقطاعاً بعد اندفاع. لذلك جاءت الوصية بالرفق ومراعاة إقبال القلب وإدباره.

والرفق لا يعني التساهل أو ترك المجاهدة، بل اختيار قدر يمكن حمله والاستمرار عليه، مع توازن في العبادة والعمل والأسرة والراحة. فالسير إلى الله يجري داخل الحياة، لا على حساب إنسانية السائر وحقوق من حوله.

والميزان هنا هو المداومة الهادئة: ثبات على الأصل، وقدر من النوافل والمجاهدة تحتمله النفس من غير إفراط ينهكها أو تفريط يضيعها. فما يبني الإنسان هو ما يحفظ صلته بالله ويعينه على الوفاء بواجباته وحقوق من حوله.





القسم الثالث

طلب المعرفة

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

(فاطر، 28).

المعرفة من أجلّ ما وهب الله الإنسان، وبها يفهم نفسه والعالم ويهتدي إلى ربه، وهي من أعظم مجالات كماله المعرفي. ولذلك يحتاج إلى تمنيها إذا أراد أن يحسن الاختيار ويقرب من الله.

ولهذا جمع القرآن في وظيفة الرسالة بين التعليم والتزكية: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة، 151). فالمعرفة تهدي العمل، والتزكية تصحح وجهته.

وأعظم المعارف معرفة الله وتوحيده، ومعرفة الإنسان بنفسه وبحقيقة فقره وعبوديته لله. ومن هذه المعرفة تتحدد غاية بقية العلوم وموقعها في الحياة.

والمعرفة تكشف الحق وتمنح الإنسان مادة النظر والاختيار، لكنها ليست إيماناً بذاتها. فالإيمان هو عقد القلب على الحق وإذعانه له واتخاذَه مرجعاً للحياة، ويظهر صدقه ورسوخه في النية والعمل والاتباع. وقد يعرف الإنسان أمراً ولا يذعن له؛ فالشيطان عرف أمر الله ولم يستجب. والعمل ثمرة الإيمان وتجسيده؛ فليس جزءاً من تعريف المعرفة، ولا يستنفد وحده تعريف الإيمان. وقال الإمام علي (ع): «أول الدين معرفته... وكمال توحيده الإخلاص له» (نهج البلاغة، الخطبة الأولى).

ومن هنا كانت المعرفة أساساً في السير إلى الله وفي كل حركة واعية. وفي وصية الإمام علي (ع) لكميل: «ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة» (تحف العقول)، وعن الإمام الصادق (ع): «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق؛ لا تزيده سرعة السير إلا بعداً» (الكليني، الكافي، ج 1، كتاب فضل العلم، باب من عمل بغير علم، ح 1).

ويمثل افتتاح الوحي بكلمة ﴿اقْرَأْ﴾ (العلق، 1) دلالةً واضحةً على إيقاظ العقل وطلب المعرفة، لا على التقليد الأعمى.

وتمنحنا المعرفة النظرية إطاراً نفهم به العالم، وقد تبلغ يقيناً بالدليل. لكنها لا تصير إيماناً راسخاً مؤثراً في الحياة إلا حين يذعن لها القلب، وتنعكس في النية والعمل والمراجعة. فاليقين وصف معرفي، والإيمان موقف قلبي ومرجعية للحياة، والممارسة تكشف رسوخ هذا الموقف وتعين على تنميته.

وبالمعرفة مع التأمل والتفكير نميز بين الواقع وما نضيفه إليه من وهم، ونفهم حدود إدراكنا وحاجتنا إلى الوحي والخبرة.

والمعرفة التي يحتاج إليها الإنسان لا تقتصر على العلوم الدينية؛ فكل علم صحيح يوسع المدارك، ويعين على فهم النفس والكون والمجتمع، ويخدم الإنسان، يمكن أن يدخل في عمارة الأرض وأداء الأمانة.

وتبقى معرفة الله والعقيدة والنفس والفقه من المعارف المؤسسة للوجهة. ولا يلزم كل إنسان أن يتخصص فيها، لكنه يحتاج من أصولها إلى ما يعبده على بصيرة، ثم يعمقها بالتفكير والعمل والسؤال المسؤول.

وتعين القراءة المنتظمة في كتب موثوقة على بناء هذا الأصل؛ فاختيار كتاب جيد وقراءته بتؤدة خير من التشتت بين مواد كثيرة لا يكتمل منها معنى.

ويأتي القرآن في قلب هذه الرحلة؛ فتلاوته مع التدبر، والرجوع إلى تفسير موثوق عند الإشكال، يربطان المعرفة بالوحي ويمنعانها من أن تتحول إلى معلومات متفرقة.

كما ينبغي التفكير الفهم والبصيرة: أن يتأمل الإنسان في نفسه وما يعتمل فيها، وفي المجتمع وما يجري فيه، وفي آيات الخلق، ويربط ذلك بالله ووحدانيته وصفات كماله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (فصلت، 53).

ولا يحتاج التفكير دائماً إلى جلسة منفصلة طويلة؛ يمكن أن يحضر في لحظات الطريق والانتظار ومراجعة اليوم، ما دام الإنسان يمنحه انتباهاً صادقاً ويحوّل ما يراه إلى سؤال عن المعنى والوجهة.





القسم الثالث

معرفة النفس: مراقبة ومحاسبة وتزكية

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾

(الإسراء، 84).

لماذا نحتاج إلى معرفة النفس؟

لكل نفس إنسانية خصائصها واستعداداتها وتجربتها الخاصة. والإنسان كله يتكوّن في بيئة من الظروف والعلاقات والرسائل والنماذج والخوافز والفرص والعوائق؛ فتتأثر عبر الزمن في معارفه ومحبوباته وعاداته وشاكلته ووجهته، من غير أن تجعله مجرد نتاج لها أو تلغي فاعليته. ويسهم في تكوينه حال البدن والوراثة والتربية والمجتمع والأحداث والاختيارات المتكررة، فتترسخ فيه بمرور الوقت أنماط وميول. لذلك لا

نعرف الإنسان من عامل واحد، ولا نعد شخصيته قالباً ثابتاً؛ فهي تكون وتغير ما دام حياً.

ومن هذه النفس تصدر كثير من الأفكار والانفعالات والقرارات والعادات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء، 84). ومعرفة الشاكلة لا تعني الاستسلام لها، بل فهم ما رسخ فينا حتى نستطيع تركيته وتوجيهه.

ويفتح الله للإنسان أبواباً كثيرة للعمل الصالح، فلا ينحصر الخير في صورة واحدة بعد أداء الواجبات وترك المحرمات. ومعرفة النفس تعين على اختيار ما يلائم قدرته وظرفه ويخدم الرسالة، من غير أن تجعل الميل الشخصي حاكماً فوق الحق.

وتعرض سورة الكهف نماذج مختلفة في أدوارها وظروفها: أصحاب الكهف، وموسى، والعبد الصالح، وذو القرنين. ولم يكن اختلاف الطريق مانعاً من الصدق؛ فقد أدى كل واحد ما قام به من تكليف في موقعه.

ومن هنا يحتاج الإنسان إلى معرفة نقاط قوته وضعفه، وما يبعث همته وما يشتتها، حتى يختار مجال العمل الصالح بوعي، ويعرف ما يحتاج إلى تعلم أو استعانة أو مجاهدة.

ومعرفة النفس ليست غاية مستقلة ولا مشروعاً للانشغال بالذات؛ قيمتها أنها تعين على التوازن والتركية وأداء الأمانة. وكلما رأى الإنسان نفسه بصدق، قلّ أن تفاجئه نقاط ضعفه، وحسن استعماله لما وهبه الله.

ونقصد بالوعي بالنفس هنا أن تكون أفكار الإنسان ومشاعره ودوافعه وسلوكه حاضرةً له على نحو يتيح ملاحظتها، ومقارنتها بقيمه وما يرضي الله، ثم اتخاذ موقف واعي منها بدل أن تقوده العادة من غير مراجعة.

ولا تمنح هذه المعرفة سيطرة مطلقة على النفس، لكنها تزيد مساحة الاختيار وتكشف مواطن الخداع والتكرار. وقد ورد عن الإمام علي (ع): «نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس» (غرر الحكم ودرر الكلم).

هل نعرف أنفسنا كما نظن؟

يميل الإنسان إلى الاعتقاد أنه يعرف دوافعه بوضوح، لكنه كثيراً ما يفسر أفعاله بعد وقوعها بما يحفظ صورته عن نفسه. لذلك لا تكفي الثقة بالشعور الأول، ولا يصح في المقابل افتراض أن الإنسان غريب تماماً عن نفسه.

فبعض الدوافع واضح، وبعضها مختلط بعادة أو خوف أو مصلحة لا ننتبه إليها سريعاً. ومعرفة النفس عملية تراكمية تقوم على الملاحظة الصادقة، ومقارنة القول بالفعل، والاستفادة من نصح الآخرين، لا على ادعاء كشف كامل لخفايا الداخل.

وقد تنبهنا آية أو نصيحة أو تجربة في الرخاء أو الشدة إلى أمر غفلنا عنه. لكن التنبه لا يعني أننا فهمنا السبب أو عرفنا موضع الإصلاح؛ فقد يؤلنا نقد صحيح، وقد يريخنا عذر باطل. لذلك نراجع الدليل والوقائع والحقوق قبل الحكم. وقد يبقى سبب الضيق غير واضح، مع إمكان إصلاح خطأ تبين لنا. هذا التبين هو المقصود بالكشف في قانون الصدق الذاتي، لا كشف الغيب ولا تشخيص حال الإنسان من شعوره.

ولهذا ليست المسألة أن تملك وعياً أو تفتقده كلياً؛ بل أن تتسع معرفتك بنفسك أو تضيق، وأن تصححها كلما كشفت لك التجربة خطأ في تقديرك.

كيف ننمي معرفة النفس؟

ونوضح معرفة النفس عبر ممارسات متكاملة: المراقبة، والمحاسبة، والاستنصاح. وهي ليست اختباراً آلياً ولا انشغالاً دائماً بالداخل، بل وسائل تعين على الصدق والتزكية وحسن الاختيار.

1 وضوح القيم والغاية

يحتاج الإنسان إلى أن يصوغ قيمه وغاياته بلغة واضحة، ثم يراقب حضورها في قراراته لا في أمنياته وحدها. ومناقشتها مع من يثق بحكمتهم، ومراجعتها عند تغير الظروف، يحميانه من حمل أهداف الثقافة المحيطة من غير اختيار وإع.

وتبدأ هذه المراجعة بأسئلة المعنى: لماذا أنا هنا؟ ما الأمانة الأقرب إلى قدرتي وظرفي؟ ما المواهب التي يمكنني أن أخدم بها؟ وما الذي أحتاج إلى تعلمه أو تهذيبه؟ ومن هذه الأسئلة تتشكل القرارات المهنية والأسرية والاجتماعية، مع بقاء باب التصحيح مفتوحاً.

وحين نتضح للإنسان قيمه وبعض أنماطه، يصبح أقدر على فهم المواقف واتخاذ قرار لا تحكمه الاستجابة العاجلة وحدها. قال تعالى في وصف أولي الألباب: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (آل عمران، 191).

2 المراجعة الدورية للنفس

تقوم هذه المراجعة على ملاحظة التجارب السابقة، وما تكشفه من نقاط قوة وضعف، وعادات نافعة أو معيقة، وحاجات إلى تعلم أو تركية. وقد يدون الإنسان خلاصتها في مذكراته، ثم يعود إليها من حين إلى آخر ليرى ما تغير وما يحتاج إلى عمل.

3 الاستفادة من النصح والتغذية الراجعة

جعل القرآن التواصي بالحق والصبر من أسباب النجاة: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر، 1-3). ووردت نصوص كثيرة في فضل النصيحة، منها قوله (ص): «الدين النصيحة» (صحيح مسلم، ح 55).

وطلب النصيحة لا يمنح الإنسان رأياً من خارجه فحسب، بل يدفعه إلى صياغة السؤال بوضوح، ويكشف له زوايا لا يراها وهو داخل الموقف. ومع ذلك تبقى النصيحة مادةً للنظر، لا حكماً يلغي مسؤوليته.

وتقوم النصيحة النافعة على ضوابط تحفظ صدقها وأثرها:

♦ اختيار الناصح الصادق

يميل الإنسان إلى رؤية نفسه من داخل تصوراتهِ ومصالحهِ، ولذلك يحتاج أحياناً إلى عين صادقة من خارجه. ويطلب النصح ممن عُرف بالحكمة والحرص والأمانة، لا ممن يضلُّ أو يجامل. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً﴾ (الكهف، 51). وقد ورد عن الإمام علي (ع): «إنما سمي

الصديق صديقاً لأنه يصدقك في نفسك ومعاييك» (الريشهري، ميزان الحكمة، مادة «الصديق»).

♦ وضوح السؤال

كلما كان السؤال محدداً، استطاع الناصح أن يجيب بموضوعية، واستطاع طالب النصح أن يفهم الجواب من غير أن يحمله تأويلات لم يقصدها. أما الأسئلة العامة جداً فتنتج غالباً أحكاماً عامة يصعب الانتفاع بها.

♦ طلب النصح عند الحاجة

تزداد الحاجة إلى النصح عند مراجعة النفس مراجعةً شاملة، أو أمام قرار صعب، أو حين يتكرر موقف لا يستطيع الإنسان فهمه وحده. ولا يلزم أن يتحول ذلك إلى اعتماد دائم على آراء الآخرين؛ فالمقصود توسيع النظر ثم تحمل مسؤولية القرار.

♦ حسن تلقي النقد

قد يؤلم النقد، ولا سيما إذا جاء بعبارة قاسية أو خالف تقدير الإنسان للموقف. غير أن الدفاع التلقائي عن النفس قد يحجب ما في الكلام من حق. وقد ورد في «رسالة الحقوق» للإمام زين العابدين (ع) أن من حق الناصح أن يصغي إليه، وأن يُحمد الله إن أصاب، وألا يُتهم إن أخطأ.

ومن الوفاء للناصح أن يشكر على صدقه، وأن يُنظر في كلامه بهدوء، ثم يُعمل بما ظهر صوابه. وقد ورد عن الإمام علي (ع): «اسمعوا النصيحة ممن أهداها إليكم، واعقلوها على أنفسكم» (الريشهري، ميزان الحكمة، مادة «النصيحة»).

المراقبة في حركة اليوم

المراقبة أن ينتبه الإنسان لما يمر به من خاطر وشعور ودافع قبل أن يتحول مباشرةً إلى قول أو فعل. وهي لا تطلب منع المشاعر، بل التعرف إليها وفهم ما تشير إليه، ثم اختيار الاستجابة التي توافق القيم.

وبهذه الوقفة القصيرة تتسع مساحة الحرية بين المثير والاستجابة؛ فيستطيع الإنسان أن يهدأ، وينظر في العاقبة، ويعدل فعله قبل أن تجره العادة أو الانفعال.

وهذا هو المعنى العملي لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر، 18). فالمراقبة نظر مسؤول إلى ما يصنعه الإنسان، لا انشغال لا ينتهي بتفاصيل الداخل.

حين تتحول المراقبة إلى استغراق مرهق

وقد تنقلب المراقبة إلى استغراق في كل خاطر وتحليل لكل شعور، فيزداد الاضطراب بدل أن يهدأ. والميزان أن تنتهي المراجعة إلى فهم أو عمل، لا أن تسلب الإنسان القدرة على العيش. فإذا أصبحت الأفكار المزجة مستمرة أو معطلة، فطلب مساعدة مختص موثوق لا يناقض التوكل ولا يضعف الإيمان.

- ◆ ارتباط المراقبة بالثقة بالله والرحمة بالنفس، لا بالخوف الدائم من الخطأ.
- ◆ تحديد أوقات للمراجعة، ثم العودة إلى العمل والحاضر بدل الدوران في التحليل طوال اليوم.
- ◆ التفريق بين الخاطر العابر والنية المستقرة والفعل؛ فليس كل ما يمر في الذهن اختياراً أو وصفاً للشخصية.

- ♦ عدم محاكمة النفس على كل فكرة متناقضة، بل النظر إلى ما يتبناه الإنسان ويعمل به.
- ♦ السماح للشاعر أن تظهر وتفهم، من غير قمع ولا استرسال، ثم اختيار الفعل في ضوءها.
- ♦ الاستعانة بأناس حكماء صادقين، والابتعاد عن العلاقات التي تغذي الخوف أو الاحتقار أو التعلق المرضي.

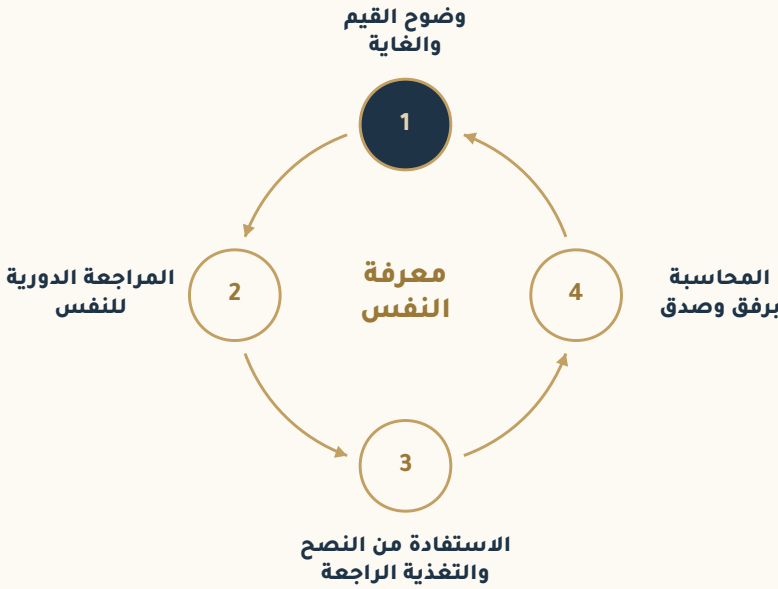
فالمقصود هو التوازن: انتباه يكشف الداخل من غير أن يحبس الإنسان فيه، ومراجعة تنتهي إلى قرار أو قبول أو استعانة، لا إلى مراقبة لا تنقطع.

4 المحاسبة برفق وصدق

محاسبة النفس مراجعة يومية أو دورية لما فعله الإنسان وما تركه، ليعرف مواضع الشكر والاستغفار والتصحيح. وهي عبادة تربط المعرفة بالعمل، لا «تقنية» تضمن الراحة أو الإنجاز. وقد ورد: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم» (الكليبي، الكافي، ج 2، كتاب الإيمان والكفر، باب محاسبة العمل، ح 2).

ولا تعني المحاسبة تقريع الذات أو جلدتها، بل سؤالاً هادئاً: ماذا أحسن الإنسان فيشكر الله عليه ويثبتّه؟ وأين قصر فيستغفر ويصلح؟ وما الخطوة الواقعية التالية؟ فالمحاسبة الصادقة تنتهي إلى شكر أو إصلاح أو توبة، لا إلى إدانة عامة للنفس.

ومن أجمل صور المحاسبة أن تجري في مناجاة الله؛ لأن الإنسان لا يقف حينها أمام ذاته وحدها، بل أمام رحمة تفتح له باب الاعتراف والرجوع. فتتحول المراجعة من حمل خفي إلى دعاء وعزم على الإصلاح.



كيف ننمي معرفة النفس؟ ممارسات متكاملة: المراقبة، والمحاسبة، والاستنصاح

ويذكر الإنسان بين يدي الله ما وُفق إليه من خير، لا ليزكي نفسه، بل ليشكره ويعرف موضع نعمته، ثم يسأله أن يثبتته ويظهر نيته.

ثم يذكر ما ندم عليه من فعل أو ترك، ويستغفر، ويحدد ما يستطيع إصلاحه أو رده من حق. فإذا تبين له حق أو موضع يحتاج إلى إصلاح، اتخذ منه موقفاً بقدر علمه وقدرته، ثم يشارك تكرار استجابته في ما يرسخ فيه مع الزمن. وقد يرسخ الأثر مع المداومة، لكنه لا يرسخ بالتكرار وحده ولا وفق خطوات واجبة الترتيب في كل موقف.

وقد يصدق الرجوع قبل أن تتغير العادة أو يسهل العمل الجديد. فمن اعتاد التسرع قد يبدأ بالإنصات، مع بقاء الغضب ومشقة ضبطه. وقد يصاحب التوبة ندم، أو تستمر آثار قديمة، أو تكون للألم أسباب أخرى، فلا يدل بقاؤه وحده على كذب التوبة. والعبرة بما يختاره الإنسان ويصلحه داخل وسعه، لا باختفاء الشعور فوراً.

ولا يستقل الإنسان بهذا الرجوع عن عون الله. ففي قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا، وبعد ذكر ضيقهم، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة، ١١٨). ويفسر «الميزان» ذلك بسبق توفيقهم للتوبة. فالمطلوب أن يستعين الإنسان بالله ويعود إلى الحق، لا أن ينتظر ألماً يغيّره أو يعد التعثر نهاية الطريق.





القسم الثالث

تنمية كمالنا وقدراتنا: أمانة للاستخلاف

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

(البقرة، 257).

تقتضي تنمية الإنسان التمييز بين ما صار بالفعل كيفيةً في النفس، وما بقي مورداً أو قدرةً أوليةً توسّع مجال الفعل. فالعلم المتحقق والفهم والإرادة الراسخة والمهارة التي صارت ملكة، وما تحقق من عدل وحكمة ورحمة وشجاعة وصبر وصدق؛ كل ذلك يدخل في التحقق الكلي. أما المال والفرصة والمنصب والصحة والقدرة الأولية فتدخل في الاتساع الأداتي. ويحتاج الجانبان إلى معرفة واقعية، ونية صادقة، وممارسة متدرجة، وتحدد الوجهة قيمتهما الأخلاقية؛ فلا يكون الاتساع قرباً بمجرد.

والنفس متحركة تتأثر بما نختاره ونكرهه، وبالناس والأفكار والظروف التي نعيش معها. وتسهم البيئة عبر الزمن في تكون الإنسان كله: في معارفه ومحبوباته وميوله وعاداته وشاكلته ووجهته، لكنها لا تحدده حتمًا؛ فهو يتأثر بها ويستجيب لها ويشارك، داخل وسعه ومع مدد الله، فيما يصير إليه. وقد تيسر البيئة بعض المسارات أو ثقلها، بل قد تضيق مجال الاختيار في واقعة أو تزيله. لذلك تُقدّر المسؤولية بما كان في وسع الإنسان، لا بالمقارنة بالآخرين أو بما كان يمكنه بلوغه نظريًا. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، 9-10).

وتعمل الشاكلة كعدسة يرى الإنسان من خلالها العالم، لكنها عدسة قابلة للمراجعة والتصحيح. ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء، 84).

قد يرى الإنسان البحر فيحضر في نفسه معنى الجمال والاتساع والسكينة، وتتحرك مخيلته مع إيقاع الأمواج.

وقد يراه آخر غامضًا مخيفًا، فتستدعي أواجهه ذكريات الفقد أو الخطر. والاختلاف هنا يتصل بالخبرة السابقة والتفسير وما رسخ في النفس من معانٍ.

وتتغير الدلالات الانفعالية للمشهد الواحد بحسب ما اقترن به من تجربة؛ فقد يبعث غروب الشمس في إنسان ضيقًا لارتباطه بذكرى مؤلمة، بينما يبعث في آخر هدوءًا وراحة.

وينطبق ذلك على أصوات وروائح وأماكن كثيرة؛ فالاستجابة لا تصدر من المثير وحده، بل من المعنى الذي حملته إليه التجربة. ومع ذلك تبقى هذه المعاني قابلة للمراجعة وإعادة التعلم.

وهذه الأنماط تؤثر في استجاباتنا العاجلة، لكنها لا تحكمنا حكماً نهائياً؛ ويمكن للإنسان، بحسب وسعه وربما بمعونة أو علاج، أن يتوقف، ويختبر تفسيره، ويختار سلوكاً مغايراً لما ألفه.

فإذا اجتمع وضوح القيمة مع إرادة صادقة وبيئة مساعدة، كان نمو الفضيلة واكتساب المهارة أيسر. وقوة الإرادة تجيب عن مقدار الثبات، أما صدقها فيتعلق بالاتجاه الذي ثبت فيه؛ فلا تكون القوة فضيلةً تامةً إلا إذا انتظمت في الحق. غير أن الرغبة وحدها لا تكفي؛ فالفضيلة تترسخ بالممارسة والمراجعة، والمهارة تقوى بالتدريب والصبر، وحين تصير المهارة ملكةً راسخةً في النفس تصبح جزءاً من قوتها المتحققة، وإن بقيت قيمتها الأخلاقية رهينة وجهتها واستعمالها: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر، 10).

كما أن التكرار قد يرسخ صفة لا يريدها الإنسان إذا ترك نفسه للعادات، لكنه لا يجعل التغيير مستحيلاً. فالتوبة، والتعلم، وتغيير ما يمكن من شروط البيئة، والممارسة الجديدة، كلها أبواب تعيد تشكيل المسار، وإن احتاجت إلى وقت.

وتسهم تلاوة القرآن والدعاء والعبادات والأحكام في تصحيح نظرتنا وتربية إرادتنا وربط فضائلنا وقدراتنا بالعبودية، حتى لا يصبح النجاح تضخماً لأننا ولا تتحول المهارة إلى وسيلة للظلم: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (المائدة، 16).

وتتمو هذه العناصر داخل الحياة اليومية: في طلب الرزق، والتعلم، والعلاقة بالأسرة، وخدمة المجتمع، ومواجهة الصعوبات. فالدنيا ليست هامشاً خارج التزكية، بل ميدانها العملي ما دام السعي منضبطاً بالفطرة والشريعة.

ومع الممارسة ينضج الإنسان، وتنمو فضائله، ويزداد قدرةً على حمل المسؤولية. وكلما ربط علمه ومهارته بالله، صار نجاحه باباً للشكر والخدمة، لا سبباً للغفلة أو الاستعلاء. وتوسع المسؤولية بقدر القدرة ووضوح البيان، من غير أن تتجاوز ما في الوسع: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ (التوبة، 105).

وهذا هو «الطموح التزكوي»: أن ينمي الإنسان قواه وكفاءاته وإنجازاته وأثره داخل العبودية والأمانة، بحيث يكون الاتساع الأداتي خادماً للنمو التزكوي لا بديلاً عنه. فليس الزهد ضعفاً في القدرة، ولا الطموح تضخماً للأنا بالضرورة؛ إنما العبرة بالوجهة والحقوق وطريقة استعمال ما اتسع للإنسان من أسباب.

كما أن تدريب الإرادة في التفاصيل الصغيرة يقويها للمواقف الأكبر؛ فالانضباط، والوفاء بالوعد، وإتمام العمل، والصبر على التعلم، تبني إرادة أقدر على مجاهدة النفس وحسن توجيه المهارات والموارد في خدمة الرسالة.

ولا تعني العبادة الانسحاب من الحياة؛ فالزهد ليس ترك العمل والطيبات، بل تحرير القلب من العبودية لها. ولذلك يجتمع السعي والرزق والعلم مع الصلاة والصوم، ولا يقوم أحدهما مقام الآخر.

والاختبار أن تطلب رزقاً حلالاً، وتوسع على أهلك بحسب وسعك، وتستمتع بالطيب من غير إسراف، ثم تجاهد ألا يجعل فقد بعضه قيمتك تنهار أو سعيك يتوقف. فتملك الأشياء من غير أن تملكك.

ولا ينمو هذا التوازن في لحظة؛ فالدنيا ميدان ممارسة واختيار وتعلم. وقد قال الإمام علي (ع): «إن الدنيا دار صدق لمن صدقها... ودار موعظة لمن اعتظ بها» (نهج البلاغة، الحكمة 131).

العمل المهني ميدان للأمانة والخدمة

ومن ميادين تنمية الفضائل والقدرات: العمل المهني؛ ففيه قرارات وتحديات وعلاقات ومسؤوليات تتكرر، ويمكن أن تصبح أبواباً للتعلم والقرب إذا صحت النية وحُفظت الحقوق. وليس هو الميدان الوحيد؛ فالدراسة والأسرة والعمل التطوعي والحرفة ورعاية الآخرين ميادين كذلك.

وقد يفتح المسار المهني للإنسان فرصاً واسعة لتنمية علمه ومهاراته، وترسيخ الانضباط والأمانة والتعاون وحل المشكلات، كما يفتح له أبواباً لخدمة الناس وإعالة من يعول.

لكن قيمة العمل لا تقاس بالمنصب أو المؤشرات المادية وحدها؛ فقد يرفع الأداء الأرقام ويضعف الأمانة، أو يحقق تقدماً مهنيّاً على حساب الأسرة والصحة والعبادة. لذلك يحتاج النجاح المهني إلى ميزان أخلاقي ورسالي.

وتزداد أهمية هذا الميزان في الأعمال المعاصرة التي تشغل جانباً كبيراً من الفكر والوقت، وتؤثر في نظرتنا إلى أنفسنا والناس. فما نمارسه كل يوم يسهم في تكويننا، سواء انتبهنا أم لم ننتبه.

ولا تكون المهنة المحور الأهم بالدرجة نفسها في حياة كل إنسان؛ تختلف المراحل والظروف والأدوار. لكنها عند كثيرين مساحة كبيرة من اليوم، ومن ثم تستحق أن تُختار وتُدار بوعي.

ولهذا يحسن أن يُخطط الإنسان لمساره المهني في ضوء قدراته وظروفه، مع مراعاة حقوق أسرته وحاجات مجتمعه وغايته الكبرى، لا في ضوء الراتب أو المكانة وحدهما. فالحياة سلسلة مترابطة، والعمل حلقة فيها لا يحق له أن يبتلع سائر الحلقات.





القسم الثالث

المودة والافتداء بالنبى وأهل بيته (ع)

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾

(الشورى، 23).

إن مكانة أهل بيت النبي (ص) عظيمة في المنظومة الفكرية الإسلامية، وقد حرصت النصوص على ربط المسلمين بهم. فإلى جانب حديث الثقلين الوارد في فصل «الشريعة الإسلامية»، جاءت آيات وأحاديث في بيان فضلهم ومكانتهم، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب، 33).

إن محبة النبي (ص) وأهل بيته (ع) من القيم الإسلامية الكبرى التي تقرب الإنسان إلى الله، لكنها لا تقف عند شعور في القلب؛ فالمودة الصادقة تفتح

باب الافتداء بالقيم التي جسدها ودافعوا عنها، وتجعل الصلة بهم صلةً روحيةً ورسالية.

والإنسان يميل بطبيعته الاجتماعية والعاطفية إلى التآسي بمن يحبهم ويرى فيهم مُثلاً علياً. وحين تتأمل سيرة النبي وأهل بيته (ع)، ومواقفهم في الصدق والعدل والرحمة والثبات والبذل، نستقبل هذه القيم بوعي واختيار، ونجد فيها ميزاناً نراجع به أنفسنا ونوجه به حركتنا في الحياة.

ولذا، فبقدر ما نتعمق محبتنا للرسول الأعظم (ص) ولأهل بيته الطاهرين (ع)، ويصدق اقتداؤنا بهم، نرتقي إلى الله ونسمو بأنفسنا. وقد ورد في سنن الترمذي أن رسول الله (ص) أخذ بيد الحسن والحسين (ع)، فقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة» (سنن الترمذي، ح 3733).

وقد دلت نصوص كثيرة على مودة أهل بيت النبوة (ع)، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى، 23). وهذه المودة لمنفعة الناس أنفسهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (سبأ، 47)، وهي سبيل يقرب الإنسان إلى الله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان، 57).

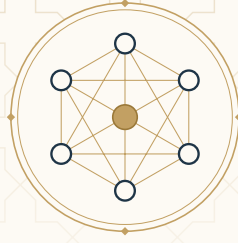
نحتاج إلى أن نعيش مودة الرسول الأعظم (ص) وأهل بيته (ع) في حياتنا اليومية، وأن نجسدها عملياً بالافتداء والوفاء للقيم التي حملوها؛ لأن محبتهم من أجل تجليات محبتنا لله بما جسده من هداية وعبودية وقرب من الله، كما أن تجسيد هذه المحبة يعمقها ويعمق محبة الله عز وجل.

ومن وسائل تجسيد هذه المحبة مداومة الصلاة على النبي وأهل بيته في العبادة وخارجها؛ فقد جعلها الله جزءاً من الصلاة اليومية، وأمر المؤمنين بالصلاة على النبي: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب، 56).

ونتعمق المحبة باستذكار سيرتهم ومواقفهم في القراءة والأسرة والمجتمع، لا لاستدعاء العاطفة وحدها، بل لفهم القيم التي جسدها والتضحيات التي قدموها. ومن أعظم هذه المواقف عاشوراء، بما حملته من صدق رسالي وإصلاح أمام الظلم.

كما تتجسد المحبة بزيارة مراقدهم واستحضار القيم التي دافعوا عنها وضخوا في سبيلها، بحيث تكون الزيارة تجديدًا للعهد والافتداء لا وقفًا عند المكان وحده.





القسم الثالث

التواصل الاجتماعي

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات، 13).

العيش الاجتماعي جزء من خلق الإنسان؛ فهو يولد داخل أسرة، وينمو باللغة والعلاقة والتعاون، ولا تتحقق إنسانيته في عزلة. وقد جعل الله الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وربط بينهم بالنسب والمصاهرة، ووزع بينهم الأرزاق والقدرات ليحتاج بعضهم إلى بعض في عمارة الحياة.

ويتضح أثر الحياة الاجتماعية في بُعدين متكاملين:

1 السكينة والانتماء

يحتاج الإنسان إلى علاقة آمنة وانتماء صادق؛ فالحبة والصحبة وصلة الرحم تمنحه سنداً نفسياً واجتماعياً، وتفتح له مجاًلاً للعطاء والتلقي. غير أن الأمان النفسي والاجتماعي لا يأتي من كثرة العلاقات وحدها، بل من جودتها ومن اتصالها بالقيم والوجهة.

وتلاحظ بعض النظريات النفسية المعاصرة، مثل نظرية التحديد الذاتي (SDT)، أن الانتماء إلى الآخرين من الحاجات الأساسية التي تؤثر في الدافعية والرفاه. وهذه ملاحظة تشخيصية نافعة، لكنها لا تستنفد المعنى الإسلامي للعلاقة بوصفها أمانةً وميداناً للعبادة.

وفي هذا السياق ورد عن الإمام الصادق (ع): «صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار»، وهو معنى تؤكدُه نصوص كثيرة في أثر الصلة والبر، لتبين أن العلاقة ليست شأنًا هامشيًا في الدين (الكليني، الكافي، ج 2، كتاب الإيمان والكفر، باب صلة الرحم، ح 14).

كما تشير نتائج دراسة هارفارد لتنمية البالغين، وهي دراسة طويلة ممتدة، إلى ارتباط العلاقات الجيدة بالصحة والرضا عن الحياة. وتبقى هذه النتيجة شاهداً على أثر الصلة الإنسانية، لا دليلاً منفرداً على غاية الوجود (روبرت والدنجر ومارك شولتز، الحياة الطيبة).

2 ميدان العمل والتزكية

الحياة الاجتماعية هي الميدان الذي يمارس فيه الإنسان قدراته وأخلاقه: يتعلم الصبر، والوفاء، والرحمة، والتعاون، وحل الخلاف. ومن خلالها تتحول القيم من أفكار إلى سلوك، ويصبح السير إلى الله حاضراً في معاملة الناس.

ولهذا يدعو الإسلام إلى مجتمع تسوده المحبة والتعاون والإخاء والتكافل، وتخف فيه الحواجز التي تعزل الناس بعضهم عن بعض. وقد شبه النبي (ص) المؤمنين في توادهم وتراحمهم بالجسد الواحد، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران، 103).

وشرع الإسلام عبادات وأحكاماً تعزز الروابط الاجتماعية؛ فصلاة الجماعة والجمعة والحج والزكاة والصوم لا تبني الفرد وحده، بل تجمع الناس على ذكر الله والتكافل والمسؤولية المشتركة.

كما شدد على حق الجار، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وحفظ الصداقة والتزاور. وهذه العلاقات تحتاج إلى رعاية متواصلة؛ لأن الإهمال يبدد ما تبنيه النية الطيبة، ولأن الوفاء يظهر في التفاصيل اليومية لا في الشعارات.

ووضع الإسلام ضوابط تصون العلاقات، فنهى عن الكبر والحسد والنميمة والبهتان والغيبة والسباب والتنازع وإيذاء الناس وإفشاء أسرارهم. قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ (الحجرات، 11).





القسم الثالث

الإصلاح

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

(هود، 88).

لا يكتمل صلاح المؤمن إذا تفوق حول ذاته؛ فسورة العصر تربط النجاة بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر. والإصلاح هنا لا يعني التحكم في الناس، بل أن يحمل الإنسان إليهم الخير، ويعينهم عليه بالحكمة وبقدر استطاعته.

وقد أقسم الله بالعصر، وجمع في سورة قصيرة أصول النجاة الفردية والاجتماعية، ليبين أن الإيمان الذي لا يثمر عملاً وتواصياً يظل ناقص الأثر.

فالإنسان الرسالي يخرج من ضيق الأنأ إلى همّ الخير العام: يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويخدم الناس. وحمل رسالة الإصلاح يربي فيه الفضائل التي يدعو إليها، بشرط أن يبدأ بنفسه وألا يجعل الإصلاح ستاراً للتعالي.

ولهذا لا نقف عند حدود ذواتنا، بل نمارس الإصلاح في الدوائر التي نملك فيها أثراً: في النفس، والأسرة، والعمل، والمجتمع، ثم في الشأن الإنساني الأوسع بحسب وسعنا وموقعنا ومسؤوليتنا.

التولي والتبري

وليس كل ما يبدو إيجابياً موافقاً للحق والفضيلة؛ فقد ترفع فكرة شعار الحرية وهي تفتح باب الظلم، أو ترفع شعار النجاح وهي تستبعد الإنسان للصورة والمال. لذلك يحتاج الإصلاح إلى ميزان يميز الخير الحقيقي من الواجهة الجذابة.

ولا يستطيع الإنسان أن يعزل نفسه عن كل أثر سلبي في عالم مختلط، لكنه يستطيع أن يختار ما يقترب منه، وما يرفضه، ومن يصحبه، وما يسمح له بأن يوجه قلبه وعمله. فالمطلوب بناء بصيرة، لا صناعة بيئة معقمة مستحيلة.

ومن هنا يفهم التولي والتبري بوصفهما موقفاً واعياً: ولاءٌ لله ولرسوله ولأوليائه وقيم الحق والعدل، وبراءةٌ من الظلم والفساد والعدوان. وهما لا يعينان انفعالاً أعمى، بل محبةً للخير ورفضاً للباطل يظهران في الاختيار والعمل.

ويضعف أثر الإصلاح أو ينحرف، على مستوى الفرد أو المجتمع، إذا لم ينبع من صدق وإخلاص في قلب المصلح؛ لأن الوسيلة التي تفسد القلب لا تبني إصلاحاً حقيقياً.

والإسلام لا يريد أفراداً متفرقين يمارسون الإصلاح عرضاً، بل أمةً يكون الإصلاح جزءاً من هويتها: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران، 104). فالتولي يرسخ الولاء للحق ورموزه، والتبري يرسخ رفض الظلم والفساد ولو صدر من قريب.

والمقصود بالتبري ألا يمنح المؤمن ولاءه ونصرته للعدوان والباطل أو يشارك فيهما. وهو موقف من الظلم، لا ترخيص بالاعتداء على المخالف أو انتقاص كرامته.

ولهذا أمر القرآن بالبر والقسط مع من لم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم، ولو خالفهم في الدين، ونهى عن موالاة من شارك في العدوان: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة، 8).

وتؤكد نصوص كثيرة ولاية أهل البيت (ع) والبراءة من أعدائهم؛ ومن ذلك ما روي أن النبي (ص) قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع): «أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم» (سنن الترمذي، ح 3870). ويُقرأ هذا الولاء في امتداد نصرته الحق الذي جسده، لا في جدل مذهبي منفصل عن الأخلاق.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية اجتماعية تحفظ حضور القيم وتمنع الاعتياد على الفساد. وفاعليته لا تأتي من الرقابة القاسية، بل من الحكمة والقُدوة والتدرج ومراعاة القدرة والعاقبة، على أن يبقى الحكم نفسه مأخوذاً من الشرع والحق: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ (آل عمران، 104).

وقد شددت النصوص على خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يعتاد المجتمع الظلم؛ وروي عن الإمام علي (ع) تحذير من أن يؤدي ذلك إلى تسلط الأشرار وحرمان الناس من بركة الدعاء (نهج البلاغة، الكتاب 47).

وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قلب نهضة الإمام الحسين (ع)، إذ أعلن أن خروجه لطلب الإصلاح في أمة جده. وهو كذلك من معاني الانتظار الفاعل للإمام المهدي (عج): أن يصلح الإنسان ما يستطيع بدل أن يعلق المسؤولية على المستقبل.

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ممارسةً عنيفة أو إذلالاً للناس، بل ثقافة رحمة ورغبة في الخير، تضبطها الحكمة والموعظة الحسنة: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران، 159)، و﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل، 125).





القسم الثالث

العطاء والإيثار

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ
نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(الحشر، 9).

إشباع الحاجات وتنمية الكمالات والقدرات أمور مشروعة، لكنها قد
تتحول إلى محور حول الذات إذا انفصلت عن الغاية. ولهذا يربي الله
الإنسان على العطاء والإيثار، حتى لا تصبح ذاته حجاباً يحجب عنه الله
والناس.

وقد ورد عن الإمام الصادق (ع): «لقضاء حاجة امرئ مؤمن أحب إلى الله من عشرين حجة، كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف». والمقصود إبراز منزلة خدمة الإنسان، لا التقليل من شأن الحج والعبادة (الكليني، الكافي، ج 2، كتاب الإيمان والكفر، باب قضاء حاجة المؤمن، ح 4).

فالعبادة لا تقاس بطول الوقت وحده؛ قد يستغرق قضاء حاجة إنسان دقائق، لكنه يحمل صدقاً ورحمةً وأثراً واسعاً، فيعظم عند الله بحسب النية والحاجة.

وللعطاء والإنفاق والإيثار أثر في تزكية الفرد وبناء المجتمع؛ فهي تحرر القلب من ضيق الأنأ، وتربطه بالله من خلال نفع خلقه: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن، 16).

وفي حياتنا المعاصرة تتيح المؤسسات الخيرية الموثوقة ووسائل التحويل قنوات فعالة لإيصال المال إلى مستحقيه وتنظيم الإنفاق، وهي نعمة تعين على الاستمرار والشفافية.

غير أن سهولة التحويل قد تجعل العطاء بعيداً عن الوعي بمعنى الحاجة والإنسان الذي تصل إليه الصدقة. لذلك يحتاج المنفق إلى أن يحفظ حضور القلب وكرامة المستفيد، ولو جرى العطاء عبر وسيط.

ومن الجميل أن يربط الإنسان الدعاء والشكر بالعطاء؛ فإذا سأل الله فرجاً أو شكره على نعمة، جعل للآخرين نصيباً مما رزقه، من غير أن يحول الصدقة إلى معاملة يشتري بها النتيجة.

وقد يعين الالتزام المنتظم بأسرة محتاجة أو مشروع موثوق على تحويل الصدقة من استجابة عابرة إلى مسؤولية مستمرة، مع حفظ خصوصية الناس وكرامتهم وعدم إيقاعهم في الحرج.

وعند مواجهة تحدٍّ أو ضيق يمكن للإنسان أن يجمع بين الدعاء والأخذ بالأسباب والصدقة؛ فيتذكر أن حاجته لا تعزله عن حاجات الآخرين، وأن الفرج الذي يطلبه لنفسه يدعوه إلى أن يكون سبب فرج لغيره.

وكذلك يمكن أن يعبر عن شكره عند الخبر الجميل بعطاء يناسب وسعه. ولا تقاس قيمة الصدقة بكبر المبلغ وحده؛ فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

والغاية أن ترتبط أفراح الحياة وتحدياتها بالله وبخدمة الناس، فيتربى القلب على الامتنان والرحمة ويضعف فيه الشح، ولو لم يشعر الإنسان بتغير سريع.

ومن العطاء ما لا يحتاج مალًا، وقد يكون أثره بالغًا: الكلمة الطيبة. قال النبي (ص): «الكلمة الطيبة صدقة» (صحيح البخاري، ح 2989؛ صحيح مسلم، ح 1009).

وفي واقع يعاني فيه كثير من الناس ضغطاً ووحدةً وخوفًا، قد تكون كلمة صادقة صادرة من قلب رحيم باباً للراحة والقوة، من غير أن تدعي حل المشكلة كلها.

وربما لا تغير الكلمة الطيبة الظروف مباشرة، لكنها تمنح من يسمعها شعوراً بأن هناك من يراه ويسنده، وقد تفتح له زاوية جديدة للفهم والعمل: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم، 24).

ومن كان متخصصاً في علم أو مهنة يحتاجها الناس استطاع أن يتصدق بجزء من وقته وخبرته، ولا سيما لمن لا يقدر على كلفة الخدمة. وحين يرتبط هذا العطاء بمؤسسة أو مسجد أو مبادرة موثوقة يكون أقدر على الاستمرار وحفظ الحقوق.

ومن أصعب صور الكلمة الطيبة أن تدفع السيئة بالحسنة؛ فإذا أساء إليك أحد، لم تجعل إساءته تحدد أخلاقك، بل اخترت ما هو أحسن مع حفظ حقك وحدودك: ﴿وَيَذَرُوهَا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ (الرعد، 22).

وهذا تدريب للنفس على الخروج من هيمنة الأنانية والشح، حتى تنطلق إلى الله وهي أقدر على العفو والعدل والرحمة، لا مكجلة برد الفعل.

وقد وصف الله من يقدر على ذلك بأنه ذو حظ عظيم: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت، 35).





القسم الثالث

الغرور والثقة بالنفس

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

(آل عمران، 159).

حين تشق طريقك نحو الكمال، قد يتحقق فيك بعض الفضائل بفضل الله، وبما أسهمت فيه الفطرة والتربية والبيئة والمجاهدة. وقد يلاحظ الناس ذلك ويثنون عليك، فيفتح الثناء باب الفخر والزهو، ثم يتسلل الغرور والعجب إلى القلب إن لم ينتبه الإنسان إلى مصدر النعمة ومسؤوليتها.

الغرور والعجب والأنا المتضخمة تدور معاً، وهي من أشد أعداء الإنسان خطراً؛ لأنها تفسد نظرته إلى نفسه وإلى الآخرين، وتهدم كثيراً من الخير في

الدنيا والآخرة. ولهذا نهى الله عنها فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسِّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان، 18).

والغرور يفسد على الإنسان قراءة نعمته؛ فينسب الفضل إلى نفسه استقلالاً، ويغفل عن المدد والظروف وحقوق الآخرين. ولهذا يعلمنا المنهج الإسلامي أن نستشعر عزنا من جهة عبوديتنا لله عز وجل. تأمل مناجاة الإمام علي (ع): «إلهي، كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً» (ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 20، من الكلمات المنسوبة إلى أمير المؤمنين).

غير أن نجاحات الإنسان وما يملكه من موارد وقدرات أولية، كالصحة والفرصة والذكاء الخام، وما صار في نفسه علماً وفهماً وإرادةً ومهارةً راسخة، وما تحقق فيها من حكمة وعدل ورحمة، لا تجعل كل معرفة بمزاياه غروراً. فالإنسان يحتاج إلى أن يعرف ما يستطيع وما لا يستطيع، وأن يبني خطته على تقدير واقعي لنقاط قوته وحدوده. والسؤال ليس: هل نعرف ما أوتينا؟ بل: كيف نفهمه، وإلى أي وجهة نستخدمه، وعلى من يعتمد القلب عند العمل؟

وتحتمل عبارة «الثقة بالنفس» معنيين: فإن أريد بها معرفة الإنسان الموضوعية بما أودع الله فيه من موارد وقدرات أولية، وما تحقق في نفسه من علم وخبرة وإرادة وملكات وفضائل، مع وعي حدوده ونقاط ضعفه، فهي معرفة لازمة للعمل وتحمل المسؤولية. وإن أريد بها الاعتماد على النفس بوصفها مصدر القوة وضامن النتيجة، فهي وهم يفتح باب العجب والغرور.

معرفة القدرة لا تعني ضمان النتيجة؛ لأن الإنسان عامل واحد ضمن شبكة واسعة من الأسباب والظروف والإرادات، وقد تعمل عوامل كثيرة في اتجاه يخالف ما يسعى إليه. ولذلك تساعد معرفته بنفسه على حسن التخطيط وبذل الوسع، لكنها لا تمنحه السيطرة على المآل.

أما أن يعتقد الإنسان أن قدراته وحدها كافية لتحقيق طموحاته، متجاهلاً حدود نفسه وتأثير العوامل الأخرى، فهو من الغرور والوهم. ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف، 53). وعن الرسول الأعظم (ص): «إلهي، لا تكليني إلى نفسي طرفة عين أبداً» (الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 19، ص 261). وفي هذا المعنى يفهم قول الإمام علي (ع): «الثقة بالنفس من أوثق فرص الشيطان» (غرر الحكم، ح 4733)؛ أي حين تتحول إلى اعتماد مستقل على الأنا.

والطريق المتوازن هو أن يعرف الإنسان قدراته وفضائله وحدوده بصدق، ويأخذ بالأسباب بثبات وجراءة، ثم يجعل ثقته القلبية بالله وحده؛ فلا يعطله التردد، ولا يخدعه الغرور، ولا يظن أنه يملك النتائج.

ولتتضح الصورة، يمكن ترتيب المعنى في خمس نقاط تكشف الفرق بين معرفة ما تحقق في النفس من قوى وكالات، ومعرفة ما يوسع مجال الفعل من موارد وقدرات، وبين الثقة بالله والغرور والتواضع.

◆ أولاً: المعرفة الموضوعية أساس الحركة

يقول الإمام علي (ع) لكميل: «ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة» (تحف العقول). فأساس الحركة هو المعرفة الموضوعية، لا الجهل ولا

الوهم. ولذلك نحتاج إلى أن نعرف مواردنا وقدراتنا الأولية، وما نحقق في نفوسنا من علم وإرادة وملكات وفضائل، وما تفضل الله به علينا، من غير تهويل ولا تبخيس، حتى نبني عليها في التخطيط والعمل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى، 11).

ونحتاج كذلك إلى معرفة نقاط الضعف والفرص المتاحة والتحديات التي تعترض الطريق، وإلى تحديد الهدف قبل اختيار الوسيلة. وهذه المعرفة ليست تعظيماً للذات، بل شرط للبصيرة وحسن التدبير.

◆ ثانياً: معرفة القدرات لا تعني ضمان النتيجة

إن معرفتنا بنقاط قوتنا، وعملنا على تميئتها، يزيدان، وفق السنن التي خلقها الله، فرص نجاحنا في تحقيق أهدافنا، لكنهما لا يضمنان تحققها؛ فنحن عامل واحد ضمن عوامل وقوى كثيرة قد تتجه أحياناً إلى غير ما نسعى إليه.

والأسباب كلها قائمة بإرادة الله، فلا تستقل بإيجاد نتائجها ولا تخرج عن ملكه. ومع أن الإنسان مأمور بإحكام الأسباب، يبقى تحقق المال لله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس، 82). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج، 73).

◆ ثالثاً: التوكل على الله والثقة به

ويتكامل السير إلى الله حين ينفي الإنسان ما أودع الله فيه من موارد وقدرات، وما تحقق في نفسه من قوى وكالات، ويصدق في توجيه ذلك إلى

الحق، مع وعيه الدائم بعبوديته وافتقاره الوجودي إليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر، 15).

ولهذا، ففي الوقت الذي يدعو فيه الله الإنسان إلى تنمية قواه وكالاته وحسن استعمال موارده وقدراته من خلال الكدح في الدنيا والأخذ بالأسباب، يشرع له التوكل عليه وحده: ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ (الإسراء، 2). وبذلك تجتمع معرفة القدرة مع عبودية القلب، من غير تعطيل للأسباب ولا اعتماد مستقل عليها.

فلا يجعل الإنسان قلبه معتمداً على نفسه، ولا على ما يملك من أسباب الدنيا، بل يركن إلى الله ويتوكل عليه وحده: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء، 134). وهذا لا يلغي بذل الجهد والأخذ بالأسباب؛ فعنه (ص): «اعقلها وتوكل» (سنن الترمذي، ح 2517). فهو مسبب الأسباب وعلى كل شيء قدير: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة، 51).

علينا أن نثق بالله، وألا ينقطع رجاؤنا في هدايته وعونه ورحمته، وإن واجهنا ابتلاءً أو مشقة. ومهما تعقدت الطريق، لا نفقد الثقة به، فهو سبحانه ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام، 12).

وهذه الثقة بالله والتوكل عليه من مصادر قوة القلب والطمأنينة والعزة. تأمل طمأنينة نبي الله موسى (ع) حين حوَّص هو وقومه بين جنود فرعون والبحر؛ فقال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (الشعراء، 61)، فرد عليهم: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء، 62). وعن الإمام علي (ع): «أصل قوة القلب التوكل على الله» (غرر الحكم، ح 3082).

ولهذا تمنح الثقة بالله المؤمن عزّة وقوّة تعينانه على مواجهة التحديات من غير
يأس، مع قبول القضاء وبذل الأسباب: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران، 139)، و﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾
(المنافقون، 8).

إن اعتزاز المؤمن وثقته بالله لا ينشأ من اعتقاد أن الله سيحقق له كل
غرض دنيوي يسعى إليه، بل من يقينه بأن تدبير الله لا يخلو من حكمة
ورحمة، مع عجزه عن تعيين المصلحة الخاصة في كل واقعة. وعن الزهراء (ع):
«من أضعّد إلى الله خالص عبادته، أهبط الله عزّ وجلّ له أفضل
مصلحته» (ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 16، ص 211).

◆ رابعاً: التواضع لله

والتواضع لا يعني أن تنكر ما أودع الله فيك من موارد وقدرات أولية، أو ما
تحقق في نفسك من علم وإرادة وملكات وفضائل، أو ما ساقه إليك من نعم؛
بل أن تعرف مصدرها ومسؤوليتها وألا تتعالى بها. وقد تمنح الوراثة والتربية
استعداداً يسهّل تحقق بعض القوى أو يوسّع بعض القدرات، لكنها لا تمنح
الفضيلة مكتملة. وما أوتيّه الإنسان كله أمانة، وحق الأداء يتحدد بما عرفه
من حق وما كان في وسعه. وعن الإمام علي (ع): «لكل شيء زكاة، وزكاة
العقل احتمال الجهال» (غرر الحكم ودرر الكلم).

فإن قصرت أو تهاونت في أداء حق هذه النعم، فقد قصرت في جانب من
عبوديتك لله. واستشعار ثقل المسؤولية والخوف من التقصير يورثان التواضع،
ويدفعان إلى مزيد من الاجتهاد في القرب من الله وشكره على نعمه: ﴿لَئِنْ
شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم، 7). وتأمل دعاء مكارم الأخلاق للإمام السجاد

(ع): «إلهي، ولا ترفعني في الناس درجةً إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عُرّاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلةً باطنةً عند نفسي بقدرها» (الصحيفة السجادية، الدعاء 20).

ونحن، مهما بلغنا من الإيمان، مقصرون في أداء حق عبودية الله وشكره على عظيم نعمه، وإن كان الله بلطفه ورحمته يقبل منا القليل. يقول الإمام الحسين (ع) في دعاء يوم عرفة: «لو حاولت واجتهدت مدى الأعصار والأحقاب، لو عُمّرتها، أن أؤدي شكر واحدة من أنعمك ما استطعت ذلك إلا بمنك الموجب عليّ به شكرك أبداً جديداً، وثناءً طارفاً عتيداً» (دعاء عرفة، في إقبال الأعمال).

وبهذا الفهم لا تتحول معرفة الإنسان بمزاياه وفضائله إلى نخر أو غرور، بل إلى تواضع وخشية وشعور بالمسؤولية. وتأمل مناجاة الإمام زين العابدين (ع): «إلهي، إليك أشكو نفساً بالسوء أماره، وإلى الخطيئة مبادره، وبمعاصيك مولعه، ولسخطك متعرضه...» (الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكين).

◆ خامساً: التواضع للناس

التواضع للناس يعني ألا ترى نفسك أعلى منزلةً منهم بسبب ما تحقق فيك من كمال أو قوة، أو ما أوتيت من مورد أو علم أو عمل، ولا أن تختزلهم فيما يظهر لك من نقص. وقد يظهر لك تفوقك في جانب، لكنك لا تحيط ببدايات غيرك وظروفه وسعيه، ويبقى الحكم على القلوب والمقامات لله.

والميزان الذي ذكره القرآن للكرامة هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ (الحجرات، 13). أما النعم والقدرات والمواهب فليست دليلاً قاطعاً

على منزلة صاحبها؛ فالله يمد الناس جميعاً من عطائه: ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ (الإسراء، 20).

وتظهر التقوى عملياً في صدق النية وبذل الجهد وأداء الحق، لا في الصورة التي يراها الناس وحدها. ولذلك لا يملك الإنسان أن يحكم لنفسه بعلو المقام لمجرد كثرة إنجازه.

قد تعلم أنك أكثر علماً أو خبرةً أو عطاءً من شخص آخر، لكنك لا تعلم مقدار ما يجاهده هو في ظروفه، ولا خفايا نيته، ولا ما بينه وبين الله. وقد يكون عملٌ قليلٌ في الظاهر صادراً عن صدق عظيم، وقد يفسد العجب الخفي عملاً كبيراً. ولهذا قال تعالى عن قوم استغربوا غياب من عدّوهم من الأشرار: ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ (ص، 63).





القسم الثالث

العبادات

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾

(البينة، 5).

تُطلب تفاصيل العبادات وأحكامها من كتب الفقه والفتاوى المعتمدة.
وليس غرض هذا الفصل عرض تلك التفاصيل، بل بيان موقع العبادة
في تكون الإنسان وحركته إلى الله.

ويتفق المسلمون على أصول الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها من
الفرائض، مع اختلاف فقهي في بعض تفاصيل الأداء. وهذا الاختلاف
مجال للاجتهاد والرجوع إلى أهل الاختصاص، ولا يمنع إدراك الوظيفة
المشتركة للعبادة.

العبودية هي الوجهة الواعية المختارة التي يكون فيها الله رب الإنسان ومرجعه الأعلى وغاية سعيه، أما العبادة فهي تجسيدها القصدي والعملي. وللعبادة معنى خاص في الشعائر بصورها الشرعية وقصد القربة، ومعنى عام في العمل المشروع حين تصح النية والغاية والوسيلة وتُحفظ الحقوق. وبذلك لا تُساوى العبودية بالشعائر وحدها، ولا يتحول كل عمل مباح إلى عبادة تلقائياً.

والعبادات، بما تشمل من صلاة وتلاوة ودعاء وحج وصوم وزكاة، من أهم مرتكزات الشريعة؛ فهي تجدد صلة الإنسان بالله وتربط يومه وغرائزه وعلاقاته بوجهة العبودية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، 56).

والعبادة أولاً حق لله وامثال له؛ ومن حكمها وآثارها أنها تزكي النفس وتعيد ترتيبها. لذلك لا تختزل في منفعتها النفسية أو الاجتماعية، ولا تكون هذه الآثار هي التي تمنحها مشروعيتها.

وتؤثر العبادة في تكوّن الإنسان من جهتين متكاملتين:

الأولى أنها تجدد استجابته للحق والعبودية، وتعيد قلبه إلى الله، فتقوى إرادته ويضعف استسلامه للشهوة والغضب. وهذا ما تشير إليه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت، 45).

والثانية أنها عبادة متجسدة: تصدر عن النفس الواحدة بقصدها وإيمانها، وتتجسد بالبدن في صورتها الشرعية وأدائها العملي، وتحرك الفهم والحب والخوف والرجاء والرحمة والعطاء. فلا باطن يغني عن الامتثال، ولا ظاهر يثبت وحده كمال الباطن. وبهذا لا تبقى القيم أفكاراً منفصلة عن الممارسة، ويعود أثر العبادة إلى النفس من غير أن يكون آلياً.

وعندما يتفاعل الإنسان مع العبادة بوعي، تتجذر معانيها في نفسه وتصبح جزءاً من طريقته في النظر والعمل؛ فالصوم يربي الإرادة، والزكاة تربي العطاء، والحج يربي الوحدة، والصلاة تعيد الوجهة إلى الله.

ويتفاوت هذا الأثر بحسب الحضور والإخلاص، لا بحسب الصورة وحدها. وقد قال الله في الأضحية: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ (الحج، 37).

ترسيخ العبودية لله في وجداننا

يعود هنا سؤال فصل «ماذا يعني القرب من الله؟»: كيف تترسخ العبودية في حياة الإنسان العملية، وتنمو الفضائل الموافقة لها؟

لا نحتاج إلى اختراع الطريق من الصفر؛ فقد شرع الله عبادات تحفظ الصلة به وتعين على الطمأنينة والاستقامة. والمطلوب أن ننتبه إلى معناها، لا أن نؤدي صورتها وحدها.

ويمكن التمييز بين مستويين من الممارسة:

◆ المستوى الأول: الفرائض

تتمثل في الصلاة والصوم وسائر الواجبات. وهي تقيم أصل الصلة بالله وتضع حداً أدنى ثابتاً لا تستقيم الحياة الإيمانية من دونه، ويزداد أثرها كلما أداها الإنسان بوعي وحضور.

وليس المطلوب أن يبلغ المصلي خشوع الأولياء دفعةً واحدة، بل أن يبدأ باستحضار بسيط: أنه بين يدي الله، وأن الله دعاه، وأن الكلمات التي يقولها تحمل معنىً يخاطبه.

ويستطيع أن يفتح قلبه لمحبة الله من غير تكلف أو صناعة شعور، يتذكر رحمته ونعمته، ويترك للمحبة أن تنمو مع المعرفة والمداومة.

ويخاطب الله بما في قلبه قبل الصلاة وبعدها وفي سجوده، فهو يسمعه ويراها، ولا يحتاج الإنسان إلى لغة متكلفة حتى يكون دعاؤه صادقاً.

ولا يعنّف نفسه إذا ضعف حضورها، بل يأخذها بالرفق والتدرج، فالخشوع ينمو بالممارسة، والقسوة قد تحول العبادة إلى عبء.

وسيشرد الذهن مراراً إلى مشاغل الدنيا، وهذا أمر يقع للناس. فإذا انتبه المصلي عاد برفق إلى القراءة والذكر، من غير يأس أو جلد للذات. والشروء غير المختار لا يساوي الغفلة المتبناة؛ وإنما يُنظر إلى موقف الإنسان حين يتذكر.

وقد نخطر أثناء الصلاة فكرة نتصل بعمل أو مشكلة. لا يحتاج الإنسان إلى أن ينسبها فوراً إلى إلهام أو وسوسة؛ يكفي أن يلاحظها، ويؤجل معالجتها، ثم يعود إلى ما هو فيه.

وبعد الصلاة يستطيع أن يدوّن ما يستحق المتابعة، وأن يشكر الله على ما فتح له من فهم، من غير أن يجعل شروء الذهن فضيلة أو ذريعة لتترك الحضور.

وقد تتزاحم المشاغل عند دخول الصلاة، فيستعجل الإنسان. وهنا يعينه أن يمنح الصلاة حقها من الوقت، وأن يضع ما يستطيع من أعماله جانباً حتى يفرغ منها: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (المنافقون، 9).

امنح الصلاة وقتاً مناسباً من غير إبطاء متكلف ولا عجلة تذهب بمعانيها؛ فالمقصود حضور القلب مع أداء العبادة على وجهها.

وهكذا تؤدي كل عبادة بتأمل وهدوء حتى يظهر أثرها في السلوك. فالذي شرعها هو خالق الإنسان والعليم بما يصلحه، وقد أخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

◆ المستوى الثاني: المستحبات

وتفتح العبادات والأذكار المستحبة، كصلاة الليل والصدقة الزائدة، أبواباً أوسع لمن وجد في نفسه ووقته قدرة على الزيادة؛ فهي ليست ميداناً للمباهاة، بل وسائل لتقوية الصلة بالله.

ولا يستطيع الإنسان الإتيان بكل ما ورد من المستحبات، ولا يُطلب منه ذلك. يأخذ منها ما يلائم وسعه وظروفه وواجباته، ويحفظ التوازن حتى لا تتزاحم نافلةً فريضةً أو حقاً لازماً.





القسم الثالث

قراءة القرآن الكريم

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(الحشر، 21).

القرآن الكريم هو المصدر الأول للشريعة والهداية، أنزله الله على الرسول محمد (ص)، وجعله مباركاً وهدياً ورحمةً للمؤمنين: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ (الأنعام، 155).

وهو معجزة الرسول (ص) الخالدة، محفوظ من التبديل والتحريف، والقرآن الذي بين أيدينا هو الكتاب المنزل على النبي: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر، 9).

ومداومة القراءة الواعية تُسهم في تشرب النفس مفاهيم القرآن وثقافته، وتربط المعرفة بالعبودية؛ فالإنسان يقرأ امتثالاً لله، ويتلقى من الآيات ميزاناً يعيد به النظر في نفسه وعمله.

وفي زمن تتسارع فيه الحياة وتعدد الضغوط، يحتاج الإنسان إلى مرجع يعيد ترتيب رؤيته قبل أن يقدم له حلولاً جزئية. والقرآن هداية وشفاء لما في الصدور، يعلم الإنسان كيف يفهم نفسه ودنياه ومصيره: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء، 82).

لكن التحدي لا يكمن في غياب القرآن عن بيوتنا، بل في أن نقرأ أحياناً من غير تدبر أو صلة بالحياة. وقد نطلب فهم الإنسان والنجاح من مصادر كثيرة، ثم نترك الميزان القرآني خارج السؤال.

ولا يعني ذلك رفض النتائج العلمية الموثوقة أو الخبرات البشرية النافعة في مجالها؛ فالعلوم المتخصصة تدرس آليات جزئية في النفس والسلوك والبدن والمجتمع، ويمكن أن تعين في التشخيص وتطوير الأدوات. لكنها لا تثبت وحدها أصول الإيمان أو غاية الوجود، كما لا يحل النموذج الديني محل العلم في تفسير الآليات الجزئية.

فالقرآن هو المرجع الذي يضبط وجهة المعرفة، ويبين الحقائق المؤسسة للإيمان والأخلاق والمصير. وتُقبل النتيجة العلمية الموثوقة بقدر ما تثبت في مجالها، أما تأويلات المدارس الفلسفية والقيمية للإنسان والغاية فتراجع في ضوء الحق والفطرة والعبودية، ولا تُسوّى بالنتيجة العلمية نفسها.

ووصف القرآن نفسه بأنه شفاء ورحمة لا يعني أنه بديل عن الطب أو العلاج المتخصص، بل أنه يشفي أمراض القلب والاعتقاد والوجهة، ويمنح الإنسان معنى يعينه على حمل ألمه واتخاذ أسبابه الصحيحة. ويظهر أثره حين يفهم ويتبع، لا بمجرد وجوده في الرف.

وفي القرآن من الهداية ما تحتاجه البشرية لتعرف خالقها وغايتها وميزان الخير والشر، وقد بين الرسول (ص) معانيه وجسدها في سيرته، مبشراً من استجاب له ومنذراً من الإعراض: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء، 105).

ولهذا يحتاج الإنسان إلى صحة منتظمة مع القرآن، ولو بقدر يسير، يقرأه بتدبر ويسأل: ماذا تكشف هذه الآية عن الله والإنسان والحياة؟ وما الذي تدعوني إلى مراجعته في عملي؟

ولا نتوقف قيمة القراءة على كثرة الصفحات؛ فقد تكون آيتان تُقرآن بحضور أعمق أثراً من صفحات تمر من غير انتباه. ويختار الإنسان وقتاً يكون فيه ذهنه أهذا، كالصباح أو ما بعد الصلاة.

وإن تعذرت القراءة في وقت ما، نفع الاستماع المنصت في طريق آمن أو وقت فراغ، بشرط ألا يكون على حساب الانتباه لما يحتاجه العمل أو القيادة.

والانتباه مهارة تنمو؛ فإذا شرد ذهن أعاده القارئ برفق إلى الآية، وحاول فهم كلمة واحدة أو معنى واحداً بدل أن يحول الشرود إلى سبب لترك القرآن.

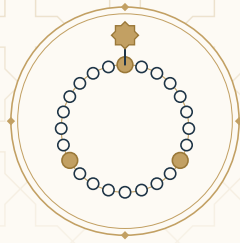
ويقرأ القرآن مقبلاً عليه، متأملاً في معانيه، مصداقاً به، ومستعداً لأن يصحح فهمه وسلوكه. فالتواضع أمام الوحي لا يلغي العقل، بل يدعو إلى الإصغاء والتحقق والرجوع إلى التفسير.

وإذا بدا له تعارض بين آية وخبرته، فلا يتعجل بتكذيب النص ولا بإلغاء الواقع؛ بل يراجع فهمه وسياق الآية، ويرجع إلى أهل العلم. فقله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر، 60) حق، وفهم صور الاستجابة وأوقاتها يحتاج إلى جمع النصوص والنظر في حكمة الله.

وقد تخدع الحواس الإنسان كما يخدعه السراب، لكن هذا لا يعني أن نغلق باب السؤال. الثقة بالله تدفعنا إلى البحث الأصدق: نوقن أن الوحي حق، ثم نبذل جهدنا لفهمه من غير عناد ولا تبسيط مخل.

وتعين التفاسير الموثوقة على هذا الفهم؛ فيختار القارئ تفسيراً يناسب مستواه، ويرجع إليه عند الآيات التي تثير سؤاله، من غير تشتت بين تطبيقات ومصادر لا يعرف منهجها.





القسم الثالث

ذكر الله عز وجل كثيراً

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا﴾

(الأحزاب، 41-42).

لا تميز صعوبات الحياة بين المؤمن وغيره؛ والعمل والأسرة والمرض والخوف قد تستحوذ على الذهن حتى يحضر الإنسان في الصلاة ببدنه ويغيب بقلبه، مع أن النفس الفاعلة واحدة، أو يقرأ القرآن من غير أن ينتبه إلى ما يقرأ.

وقد يظن بعض الناس أن الطريق إلى الذكر هو الانسحاب من المجتمع والتخفف من كل مسؤولية. وقد تنفع الخلوة بقدرها، لكنها لا تكون بديلاً عن الأسرة والعمل وخدمة الناس.

وفي المقابل يخترط كثير منا في طلب الرزق ومشاكل الحياة حتى يضيق وقته لنفسه وأسرته وعبادته. وقد يؤدي الواجب وهو شارد، لا لأنه لا يريد الله، بل لأن الضغوط تملأ وعيه.

وإذا حاول أن يستعيد توازنه وجد نفسه داخل عادات وجدول وعلاقات يصعب تغييرها دفعةً واحدة، وقد اكتشف أن بعض تصوراته عن النجاح والضرورة يزيد القيود التي يعيشها.

وثن هذا الاختلال قد يظهر في توتر وإرهاق وضعف في العلاقات والعبادة. ولا يعني ضغط العمل أو المرض أو شرود الذهن غير المختار أن الإنسان معرض عن الله. والمقصود بالإعراض هنا أن تُترك هدايته ويُستَرسَل في وجهة تصرف عن الحق، لا مجرد تعب يثقل على الإنسان.

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه، ١٢٤). ويشرح «الميزان» و«الأمثل» جانباً من هذا الضنك في الحياة: قد تتسع ممتلكات الإنسان ويظل قلبه ضيقاً بها؛ يخاف فقدها، ويطلب المزيد، ولا يطمئن إلى ما عنده. ليست المشكلة في المال أو العمل أو محبة الأهل، بل في تعلق يستولي على القلب حتى يصبح ما نطلب منه الأمان مصدراً متجدداً للخوف والحرص.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في سياق المنافقين: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة، ٥٥). ويشرح «الميزان» كيف قد يتعذب الإنسان بتعلقه بما يراه مصدر سعادته. وليس هذا حكماً على كل صاحب مال أو أسرة، ولا

دليلاً على أن التعذب بالتعلق سيقود إلى التوبة حتماً؛ فقد تقدم الفرق بين التنبيه والاستدراج في فصل البلاء.

وهذا بعض ما نعينه بضيق الإعراض، لا تفسير لكل ألم نفسي أو بدني. فالذكر يعيد الأشياء إلى مواضعها، ويعين القلب على ألا يجعلها غايته العليا؛ لكنه لا يغني عن العمل والعلاج والمساندة. وقد يصدق الرجوع وتبقى مشقة أو آثار قديمة، كما قد يزول الانزعاج بالتبرير من غير أن يصلح المسار.

فما الطريق إلى ذكر يرافق الإنسان ولا يقطعه عن واقعه؟

الطريق أن يعتاد الارتباط بالله وهو يعيش وسط الناس والحياة: يعمل بجهد، يأخذ بالأسباب، ويفرح ويحزن، لكنه يعيد قلبه إلى الله كلما أخذته المشاغل. والطمأنينة هنا لا تعني ألا يهتم بالتأنيج، بل ألا تفقد النفس مرجعها الحق تحت سلطانها: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، 28).

هذا المعنى واضح في غايته، لكنه يحتاج إلى ممارسة بسيطة متكررة حتى يتحول من فكرة إلى حضور.

فكيف يجمع الإنسان بين العمل في عالم مزدحم وبين صلة داخلية بالله تمنحه السكينة؟

ذكر الله لا يقتصر على تكرار اسمه باللسان، وإن كان الذكر اللفظي باباً عظيماً؛ بل هو حضور الله وأسمائه وآياته وأمره ووعدده وغاية العبودية في وعي النفس وقلبها، حضوراً يؤثر في فهمها وتقديرها ومحبتها ونيتها واختيارها وعملها.

ويؤكد الإمام الصادق (ع) هذا المعنى العملي بقوله: «من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً»، ثم يقول: «لا أعني سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان منه، ولكن ذكر الله عند ما أحل وحرّم، فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها». فلا تنفي الرواية الذكر اللساني، بل تبين أن حضور الله ينبغي أن يظهر في الاختيار. وهنا يلتقي الذكر بالوفاء بالعهد والصدق الذاتي: أن يعمل الإنسان بما تبين له، لا أن تبقى معرفته بعيدة عن فعله.

تذكر أن الله ربك ومالك ومالك كل ذرة في الكون، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأن أمره، إذا أراد شيئاً، أن يقول له: كن، فيكون.

وتذكر أنك عبده ومخلوقه الذي شمله بلطفه، وأن ما يصيبك لا يخرج عن علمه وحكمته، وإن لم تدرك وجه المصلحة في كل حدث.

وتذكر أن باب الخطاب بينك وبينه مفتوح؛ تستطيع أن تدعوه وتبث إليه شرك فيسمعك، وأن تطلب عونه فيعينك بما يشاء، من غير وسيط يحجبك عنه.

ومداومة استحضار هذه الحقائق تصحح التصورات التي تضخم الخوف أو توهم الاستقلال، وتعيد ترتيب القلب حول الله. وكلها رسخت زاد نصيب الإنسان من الطمأنينة، مع بقاء الحاجة إلى العمل والعلاج والمساندة عند الشدة.

وفي خضم اليوم، ومع ما يمر بالإنسان من إحباط ونجاح ومفاجأة، يحتاج إلى من يبث إليه ما في نفسه. وقد لا يجد دائماً من يسمعه أو يفهمه، أما الله فلا يغيب عنه شيء.

فليعتد الإنسان أن يناجي الله بما أهمه وما أسعده، وأن يلجأ إليه من غير تكلف: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة، 200).

ومع ازدحام الجدول تبقى لحظات قصيرة بين الأعمال: في المشي، والانتظار، والانتقال. ويمكن أن تتحول هذه الفواصل إلى ذكر ودعاء، من غير أن تعطل الواجب أو تشتت الانتباه عن السلامة.

لا يحتاج الذكر إلى وقت طويل في كل مرة؛ قد تكون دقيقةً يراجع فيها الإنسان قلبه، أو استغفاراً صادقاً، أو دعاءً يطلب به العون. وتكرار هذه العودة يمنع المشاغل من أن تصبح عالمه كله.

وقد يشعر في البداية بشيء من التكلف؛ لأنه اعتاد الأدعية المأثورة بألفاظها ولم يعتد أن يخاطب الله بلغته اليومية. ومع الممارسة يزول الحرج، وتبقى الأدعية المأثورة مدرسةً تعلمه كيف يدعو.

وقد يمنح هذا الاتصال القلب قوةً وطمأنينةً بقدر صدقه؛ فيتعلم الإنسان التوكل، ويجد في المناجاة لذةً هادئةً، وترسخ محبة الله في وجدانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، 28).

والعيش مع حضور الله ومرجعيته يرفع نظر الإنسان عن صغائر كثيرة تستنزف الناس؛ فلا يعنيه أن ينتصر في كل جدل أو يملك كل ما يتنافسون عليه، لأن قلبه متصل بغاية أكبر.

ومن هذا الاتساع تنشأ السكينة والوقار؛ لا بوصفهما شعورين دائمين لا يتغيران، بل بوصفهما مظهرين لاستقرار يتيح للنفس العودة إلى مرجعها الحق بعد الاضطراب، وحمل الألم من غير أن يبتلع المعنى.

وحين يشتد التكذيب أو السخرية أو الوحدة، يفتح الذكر للنفس باباً إلى الصبر والعمل من جديد. وقد وجه القرآن الرسول (ص) في لحظات الضيق إلى التسييح: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (طه، 130).





القسم الثالث

الدعاء

﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

(النساء، 32).

قد تضطرب بنا الحياة حتى نشعر كأننا في سفينة صغيرة وسط موج عال؛ نملك بعض القدرة على الاختيار والعمل، لكننا لا نخطط بجميع الأسباب ولا نضمن النتائج. وهنا يظهر فقر الإنسان وحاجته إلى الله، من غير أن تلغى قدرته أو مسؤوليته.

كما أن معرفتنا محدودة، وقد نلح في طلب شيء نظنه خيراً وهو يحمل لنا ضرراً، أو نكره أمراً وفيه باب نفع لا نراه. ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (الإسراء، 11)، و﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، 216).

وغاية الحياة ليست مجرد تحصيل أنها صورة ممكنة من الدنيا، بل أن نسير إلى الله ونؤدي أمانتنا فيها. وفي تفاصيل الطريق قد نختار بين مصالح متعارضة، أو نعجز عن رؤية المآل، فنحتاج إلى الهداية كما نحتاج إلى القدرة.

ولطف الله لا يترك الإنسان وحده أمام هذه المسؤولية؛ فقد هداه بالوحي والعقل، وفتح له أبواب الدعاء والاستعانة، وأقام في العالم أسباباً يعمل من خلالها. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة، 36).

وتكشف قصة موسى والعبد الصالح أن رعاية الله قد تجري من خلال أسباب وأشخاص وأحداث لا نفهم حكمها كاملة. فالدعاء لا يعطل السنن، بل هو نفسه سبب داخلها: يحرك القلب والعمل، وقد يفتح الله به من الأبواب ما يشاء على وجه ظاهر أو خفي.

ومن هنا نتضح مكانة الدعاء: هو عبادة وصلة وطلب هداية وعون، لا ضمان آلي لتحقيق الصورة التي نريدها. قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان، 77).

والدعاء في حقيقته ليس ألفاظاً يجري بها اللسان وحده، بل هو توجه القلب إلى الله مع صدق الحاجة، ثم أخذ الإنسان بما يستطيع من الأسباب. فهو اعتراف بأن الله مسبب الأسباب وقاضي الحاجات، من غير إنكار لما جعله في العالم من وسائل.

وبهذا المعنى يعبر الدعاء عن النسبة الحقيقية بين غنى الله وفقر الإنسان؛ فالله مصدر الوجود والعطاء، والإنسان قائم به محتاج إليه في أصل حياته وفي كل ما يطلبه.

ويبين السيد الطباطبائي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (إبراهيم، 34) في «الميزان» أن السؤال لا يقتصر على اللفظ؛ ففقر الموجود وحاجته لسان وجودي، وهذا وجه من معنى الافتقار الوجودي. أما الدعاء فهو فعل واعٍ يتوجه به الإنسان إلى الله، فلا يُساوى بلسان الحاجة التكويني وحده. وما يصل إلى الإنسان من النعم استجابة لحاجات كثيرة لم يصغها بلسانه.

ولهذا قرن القرآن الدعاء بالعبادة والإخلاص والخضوع: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر، 60)، و﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (غافر، 14)، و﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف، 55).

أما النبي عن دعاء غير الله فلا يعني ترك الأسباب التي أذن بها؛ إنما يعني ألا ننسب إليها استقلالاً، وألا يركن القلب إليها كأنها تملك النفع والضر من ذاتها.

فالأَسباب وسائل حقيقية داخل الخلق، لكنها قابلة للتخلف ومحدودة، والله هو القائم عليها. لذلك يجمع المؤمن بين العلاج والدعاء، وبين التخطيط والتوكل، وبين طلب العون من الناس واعتماد القلب على الله.

بهذا نفهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة، 186).

وتلفت الآية النظر إلى قرب الله غير المكاني وعنايته؛ فلم يقل النص «فقل إني قريب»، بل جاء الجواب من الله لعباده بلا واسطة في العبارة. ويتكرر فيها ضمير المتكلم بما يرسخ معنى العناية والقرب والاستجابة.

وصدق الدعاء يقتضي أن يوافق القلب اللسان، وأن يكون الطلب جزءاً من علاقة حقيقية بالله، لا عبارة عابرة. غير أن ضعف التركيز أو اضطراب الإنسان لا يخرجُه من باب الرحمة؛ فهو يدعو بما يستطيع، والله أعلم بحاجته.

كما أن الاستجابة لا تساوي دائماً إعطاء الشيء نفسه في الوقت والصورة اللذين طلبهما الإنسان. وقد تكون الاستجابة تحقيقاً، أو تأخيراً، أو توجيهاً إلى خير آخر، أو دفعاً لضرر، أو أجراً يدخره الله.

ولأن الإنسان لا يعلم جميع المآلات، قد يكشف بعد زمن أن ما أُلح عليه لم يكن مناسباً له، أو أن باباً أغلق ففتح له غيره. وهذا لا يمنع الحزن على ما فات، لكنه يوسع معنى الاستجابة.

ولا يفسد الدعاء أن يأخذ الإنسان بالأسباب أو يتعلق قلبه برجاء نجاحها الطبيعي؛ إنما الخلل أن ينسى الله ويجعل السبب إلهاً صغيراً لا يرى وراءه شيئاً. أما استعمال السبب مع التوكل فهو من تمام العبودية.

وفي وصية الإمام علي (ع): «جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته... فلا يقنطنك إبطاء إجابته... وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً» (نهج البلاغة، الكتاب 31). وهذا يربط الدعاء بالرجاء والحكمة وعدم اليأس.

الدعاء مدرسة في العقيدة والتزكية

ومن يتأمل أدعية الأنبياء في القرآن، وما ورد عن الرسول (ص) وأهل بيته (ع)، يرى أن الدعاء لا يقتصر على عرض الحاجات؛ فهو يبني فهماً لله والإنسان، ويربي الضمير، ويحول المعنى إلى موقف وسلوك.

ويمكن جمع أبرز آثاره التربوية في ثلاثة مجالات:

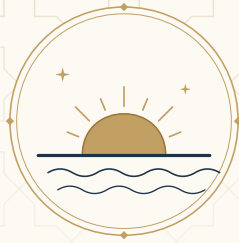
أولاً: تثبيت العقيدة؛ فالدعاء يعرف الإنسان بأسماء الله وصفاته، ويجدد التوكل والشكر والتوحيد، ويربط المعرفة بحضور القلب.

ثانياً: تربية الضمير؛ إذ يفتح باب الاعتراف بالتقصير والاستغفار والرجوع، من غير يأس ولا تبرير، ويطلب من الله الاستقامة والتسديد.

ثالثاً: تهذيب الأخلاق؛ لأن الأدعية تعلم الرحمة والعدل والخير للناس، وتكشف للإنسان ما ينبغي أن يطلبه لنفسه ولغيره.

وبذلك تمثل أدعية أهل البيت (ع) ثروة فكرية وروحية تحفظ أصالة الإيمان، وتسهم في بناء النفس وتهذيب وجهتها؛ فهي لا تكتفي بأن تقول للإنسان ماذا يعتقد، بل تعلمه كيف يقف بين يدي الله وكيف يحمل هذا الوقوف إلى حياته.





القسم الثالث

الأمل الإلهي ومآل الإصلاح: المهدي المنتظر (عج)

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا
عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾

(الأنبياء، 105).

الإمام المهدي في الرؤية الإسلامية الإمامية

يؤمن المسلمون بما بشر به الرسول (ص) من ظهور المهدي من أهل بيته في آخر الزمان لإقامة العدل وردّ الظلم. وفي الرؤية الإسلامية الإمامية هو الإمام محمد بن الحسن المهدي (عج)، الإمام الحجي الغائب، وامتداد

خط النبوة والإمامة، وقد شاء الله أن تمتد غيبته حتى يأذن له بالظهور (الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة؛ النعماني، الغيبة).

وقد وردت أحاديث المهدي في مصادر حديثة متعددة لدى المسلمين (سنن أبي داود، كتاب المهدي؛ سنن الترمذي، أبواب الفتن؛ الكليني، الكافي، كتاب الحجّة). أما تفاصيل الأسانيد والبحوث فوضعها كتب العقيدة والحديث؛ ويكفي هنا أن أصل الإيمان بالمهدي حاضر في تراث إسلامي واسع، مع بقاء انحصارية الإمامية في تعيين شخصه وغيبته.

ويمثل الإيمان بالإمام المهدي (عج) امتداداً لوعده الله بأن الظلم ليس الكلمة الأخيرة، وأن مشروع الهداية يبلغ مآله في ظهور الحق وإقامة العدل ووراثته الصالحين للأرض.

وعد الله بمآل العدل

ليس التاريخ في الرؤية الإسلامية حركةً عبثيةً مغلقةً، ولا يترك الله الإنسان بلا أفق. فمن قلب الصراع بين الحق والباطل يمتد وعد إلهي بأن يرث الأرض عباده الصالحون، وأن يبلغ مشروع الإصلاح مداه الموعود. وهذا الوعد يثبت الإنسان أمام امتداد الظلم، ويمنحه رجاءً لا ينفصل عن المسؤولية.

الانتظار الفاعل

لا يعني انتظار الإمام المهدي (عج) الوقوف خارج التاريخ حتى يأتي الفرج، ولا تعليق الإصلاح على المستقبل؛ فالانتظار الحقيقي استعداد وتزكية وعمل، وحفظ للوجهة حين تطول الطريق.

فالمنتظر الحق يهبط نفسه لما ينتظره: يصلح ما يستطيع من ذاته، ويقم العدل في علاقاته، ويقاوم الفساد بالحكمة والوسائل المشروعة، ويحمل من قيم المشروع الموعود بقدر موقعه ومسؤوليته.

وتقع على الأمة مسؤولية الدعوة إلى الخير والإصلاح في كل زمن: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران، 104). ومن هنا يصبح الانتظار باعثاً على الحضور الرسالي، لا مبرراً للانسحاب؛ أي أن يعيش الإنسان حق ساعته وما يلائمها من عبادة أو عمل أو رعاية أو تعلم أو راحة أو علاج أو تواصل أو ترويح أو استمتاع مشروع، بحسب الأولوية والوسع، داخل العبودية والأمانة.

العهد في زمن الغيبة

وعلاقة المؤمن بالإمام في زمن الغيبة ليست علاقةً بحدث مؤجل فحسب، بل علاقة معرفة ومحبة ودعاء وتجديد عهد. يدعو المؤمن بتعجيل الفرج، ويسأل الله أن يجعله من أنصاره، ثم يصدق هذا الدعاء في سلوكه: بالعدل، والرحمة، والأمانة، والإصلاح، والاستعداد الدائم لنصرة الحق.

ومن هنا يمنح الانتظار حياة الإنسان معنىً أوسع؛ فهو جزء من مسيرة بشرية تتجه، بإذن الله، إلى غلبة الحق ومآل الإصلاح: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء، 105).





القسم الثالث

عاشوراء... الملحمة الإنسانية الخالدة

الصدق الرسالي والإصلاح أمام الظلم

عن أم الفضل قالت: «وضعت الحسين في حجر النبي (ص)،
ثم حانت مني التفاتة، فإذا عينا رسول الله تهريقان من الدموع،
فقلت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، ما لك؟ قال: أتاني جبريل
فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا... وأتاني بتربته
حمراء» (الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، کتاب
معرفة الصحابة).

تظل عاشوراء ملحمةً إنسانيةً خالدةً في الوجدان الإسلامي؛ لا لأنها تستدعي الحزن وحده، بل لأنها تكشف معنى الصدق مع الله حين يصبح الإصلاح مسؤولية، وتجمع بين المودة والوعي والثبات أمام الظلم. ومن هنا يمتد أثرها من الذاكرة إلى بناء الإنسان وحركته في الحياة.



تظل عاشوراء ملحمةً إنسانيةً خالدةً في الوجدان الإسلامي

ما قبل يوم عاشوراء

في سنة 61 للهجرة، الموافقة لعام 680م، وبعد أن تولى يزيد بن معاوية الحكم، رفض الإمام الحسين بن علي (ع)، سبط الرسول (ص)، أن يمنحه شرعية المبايع، وقال: «ومثلي لا يبيع مثله» (ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف).

وُضع الإمام الحسين (ع) أمام ضغط المبايع أو مواجهة بطش السلطة، لكنه لم يجعل سلامته الشخصية ذريعةً للإقرار بما يراه انحرافاً عن خط الرسالة.

وتمسك بكرامته وتكليفه، فبقي قوله: «هيات منا الذلة» تعبيراً عن رفض منح الشرعية للباطل (ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف).

وقد رأى الإمام الحسين (ع) أن تردي أوضاع الأمة وغياب صوت الإصلاح يفرضان عليه موقفاً واضحاً، فأعلن مقصد نهضته: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله (ص)، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»، ودعا إلى استعادة الحرية الأخلاقية في مواجهة الظلم (المجلسي، بحار الأنوار، ج 44، ص 329، نقلاً عن وصيته لمحمد بن الحنفية).

وكان الإمام الحسين (ع) يدرك كلفة موقفه، لكنه لم يتراجع عن أداء ما رآه تكليفاً لحفظ معنى الرسالة ورفض الاستسلام للانحراف. ولذلك خاطب من أراد صحبته بوضوح، حتى يمضي معه من اختار الطريق عن وعي واستعداد: «من كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا» (ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف).

يوم عاشوراء

وفي العاشر من المحرم سنة 61 للهجرة قُتل الإمام الحسين (ع) مع جماعة من أهل بيته وأصحابه بعد حصار قاسٍ، في واقعة كشفت مقدار ما يبلغه الظلم حين تنفصل السلطة عن القيم والحق.

وبثبات الإمام الحسين (ع) ووفائه للإسلام غدت عاشوراء ملحمةً خالدةً؛ لأنها جسدت وحدة المعرفة والموقف، وقدمت للإنسان مثلاً على الصدق مع التكليف حين تشتد الكلفة.

ما بعد يوم عاشوراء

ولم تنتهِ رسالة عاشوراء بانتها يومها؛ فقد حمل أهل بيت رسول الله (ص)، وفي مقدمتهم السيدة زينب بنت الإمام علي (ع)، حقيقة ما جرى من الكوفة إلى دمشق، وواجهوا محاولة تشويه النهضة وإخفاء مقصدها.

وكان للسيدة زينب (ع) دور محوري في حفظ الرسالة؛ فقد جسدت في مواقفها الصبر والوعي والثبات، وربطت المصاب بمقصده، حتى لا يتحول إلى حزن معزول عن الإصلاح.

وفي خطبها ومواقفها أعادت تقديم عاشوراء إلى وجدان الأمة بوصفها شهادة على الظلم ودعوة إلى اليقظة والكرامة. وبذلك امتد أثر النهضة بعد الواقعة، وأصبح استذكارها باباً لمراجعة الذات ومقاومة الفساد بالحق والعدل.

وماذا الآن؟

ويحيي المسلمون، ولا سيما أتباع مدرسة أهل البيت، ذكرى عاشوراء بصور متباينة؛ فيستحضرون ما أصاب الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأصحابه، ويكون لانتهاك الحق، ويجددون العهد على المضي في طريق الصدق والعدل والإصلاح. فالحزن يحفظ الصلة بالقلب، والاقتداء يترجمها في السلوك.

وتتنوع صور إحياء عاشوراء بين الزيارة والمجالس وقراءة السيرة والمرثي وخدمة الناس، وغيرها من الممارسات التي تربط الذاكرة بالقيم. ويظل معيارها أن تحفظ حرمة الإنسان، وتخدم مقصد الذكر والاقتداء، وألا تطغى صورتها على رسالتها.

وفي تقاليد مدرسة أهل البيت، لا يقتصر استذكار عاشوراء على موسم بعينه، بل يمتد طوال السنة من خلال زيارة الإمام الحسين (ع)، وقراءة سيرته، واستحضار قيمه في المناسبات الدينية والاجتماعية.

ونردد عند زيارة الحسين (ع): «السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، والسلام عليك يا وارث نوح نبي الله، والسلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، والسلام عليك يا وارث موسى كلم الله، والسلام عليك يا وارث عيسى روح الله، والسلام عليك يا وارث محمد حبيب الله» (الطوسي، مصباح المتعبد، زيارة وارث). وهذا يذكّرنا بأن خط الله والهدف الرسالي واحد على مر التاريخ: هداية الإنسان إلى الله تعالى.

وهكذا يتصل الحزن على الحسين (ع) بالولاء لخط الأنبياء، ويتحول إلى عهد بالصدق والعدل والإصلاح، وإلى رفض أن يكون الإنسان جزءاً من الظلم أو شاهداً صامتاً عليه. فوفاء الذاكرة يكتمل حين تصبح عاشوراء ميزاناً للموقف، ودافعاً لإصلاح النفس والمجتمع ضمن التكليف والحكمة.



المصادر والمراجع

الجهاز المرجعي

المراجع المعتمدة

ملاحظة توثيقية

♦ أثبتت الإحالات في المتن لتيسير تتبع النصوص والأفكار، ولا يقصد هذا الكتاب إجراء تحقيق رجالي أو حديثي تفصيلي لأسانيد جميع الآثار؛ فذلك موضعه الدراسات المتخصصة. وتُقرأ أرقام الأحاديث والأبواب بحسب الترقيم الشائع، وقد تختلف الصفحات باختلاف الطبعات.

القرآن والتفسير والفكر الإسلامي

- ♦ القرآن الكريم.
- ♦ الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن.
- ♦ مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل
- ♦ الصدر، محمد باقر، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء.
- ♦ صدر المتألهين الشيرازي، محمد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، 9 أجزاء، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3، 1981م.

- ◆ المطهري، مرتضى، العدل الإلهي.
- ◆ الريشهري، محمد، ميزان الحكمة.

الحديث والمرويات والأدعية

- ◆ الشريف الرضي، محمد بن الحسين، نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح.
- ◆ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي.
- ◆ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، التوحيد.
- ◆ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة.
- ◆ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، معاني الأخبار.
- ◆ الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد وسلاح المتعبد.
- ◆ ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال.
- ◆ ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف.
- ◆ الصحيفة السجادية الكاملة، ويلحق بها المناجيات الخمس عشرة.
- ◆ ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول.
- ◆ الآمدي، عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم.
- ◆ الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة.
- ◆ النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة.
- ◆ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار.
- ◆ ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة.

- ♦ الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین.
- ♦ البخاري، محمد بن إسماعيل، الصحيح.
- ♦ مسلم بن الحجاج، الصحيح.
- ♦ الترمذي، محمد بن عيسى، السنن.
- ♦ أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن.
- ♦ البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى.

دراسات حديثة مساندة

- ♦ والدينجر، روبرت، ومارك شولتز، الحياة الطيبة: دروس من أطول دراسة علمية للسعادة، نيويورك: سايمون وشوستر، 2023.
- ♦ فينيس، داميان ج.، وتيد ج. كابتشوك، وفرانكلين ج. ميلر، وفابريزيو بينيديتي، «التطورات البيولوجية والسريية والأخلاقية في تأثيرات الدواء الوهمي»، ذا لانسيت، مج 375، ع 9715، 2010، ص 686-695.



من أين تتابع القراءة؟

لا يفرض المشروع ترتيباً واحداً للقراءة. إن بدأت بهذا الكتاب لفهم الأرض الرؤية التي ينطلق منها المشروع، فارجع إلى «نظرية النشأة الإسلامية» للتعريفات والقوانين والنماذج الحاكمة؛ وستجد في «الذات الخالدة» توسعاً في النفس الإنسانية وتكونها ومسارها، وفي «لا حدود» تقريباً للقوانين إلى التطبيق وحواراً مع نظريات النمو المعاصرة، وفي «عش سعيداً» معاشة تدريبية، وفي «رحلة كادح» تجسيداً سردياً. ويأتي دليل القارئ في مطلع كتاب «نظرية النشأة الإسلامية»، ويعينك معجمه المرجعي الملحق به على ضبط المصطلحات والانتقال إلى مواضع شرحها.

خريطة سريعة

① «المنظومة الفكرية الإسلامية» – الأساس الرؤيةي وموضع الشرح الكوني.

② «نظرية النشأة الإسلامية» – المتن المرجعي الضابط، ويضم دليل القارئ والمعجم المرجعي.

③ «الذات الخالدة» – يتوسع في النفس الإنسانية وتكونها ومسارها.

④ «لا حدود» – يقرب القوانين إلى التطبيق ويحاور نظريات النمو المعاصرة.

⑤ «عش سعيداً» – منفذ التدبر والمعايشة.

⑥ «رحلة كادح» – منفذ التجسيد السردية.

ويأتي دليل القارئ والمعجم المرجعي داخل كتاب «نظرية النشأة الإسلامية» نفسه.

رسالة المؤلف إلى القارئ

بدأت هذه الكتب من سؤال ظل يرافقتني: كيف يفهم الإنسان نفسه، ويتحرك في حياته، ويسير إلى الله من غير أن يفصل عن واقعه وعمله ومسؤوليته؟ حاولت في كل كتاب أن أقرب من جانب من هذا السؤال، مرةً بالتأصيل، ومرةً بالشرح، ومرةً بالتطبيق أو التدبر أو الحكاية.

لا أقدم هذه الأعمال بوصفها أجوبة مغلقة، بل اجتهداً بشرياً داخل الرؤية الإسلامية، يطلب الوضوح ويقبل المراجعة. وأرجو أن تكون الفكرة هي البتلة، وأن يبقى الدليل خادماً لها، واللغة طريقاً يصل بها إلى عقل القارئ وقلبه وعمله.

إتاحة المعرفة

يُتيح المؤلف النسخة الإلكترونية الرسمية من هذا الكتاب مجاناً للقراءة والتنزيل عبر المكتبة الإلكترونية الرسمية، إيماناً بأن المعرفة تؤدي رسالتها حين تصل إلى من يحتاج إليها. وتشمل هذه السياسة جميع كتب المؤلف المعروضة في الموقع والموسومة بأنها متاحة للتنزيل المجاني.

ويُسمح بتداول الرابط الرسمي أو النسخة الكاملة غير المعدلة لأغراض غير تجارية، مع إثبات اسم المؤلف والمصدر. ولا يجوز إعادة تحرير الكتاب أو اختصاره أو ترجمته أو دجه في إصدار آخر أو استعماله لأغراض تجارية من دون إذن مكتوب.

تتوفر أحدث نسخة من الكتاب، وسجل التصويبات والتحديثات، عبر المكتبة الرسمية. وإتاحة النسخة الإلكترونية مجاناً لا تعني بالضرورة مجانية النسخة الورقية، التي قد تباع لتغطية تكاليف الطباعة والتوزيع.

التصويبات والمراجعة

هذا الكتاب جزء من مشروع فكري قابل للمراجعة والتطوير. تُنشر التصويبات المؤثرة، وبيانات أحدث طبعة أو نسخة رقمية، في المكتبة الإلكترونية الرسمية. ويمكن إرسال الملاحظات الموثقة، مع تحديد عنوان الكتاب والطبعة والصفحة والعبارة ووجه الملاحظة، عبر نموذج التواصل في الموقع. ويُشكر أصحاب الملاحظات العلمية والتحريرية التي تسهم في زيادة الدقة والوضوح.



عن المؤلف

عباس آل حميد

عباس آل حميد كاتب وباحث ومستشار استراتيجي عُماني. لازمته منذ سنواته الأولى أسئلة الإنسان والغاية: كيف يتكوّن الإنسان؟ وكيف تتحول المعرفة والإيمان والعمل إلى حركة واعية نحو الله؟ وكيف يجمع الإنسان بين عمق المعنى ودقة الفعل؟ ومن هذه الأسئلة المتصلة نشأ مساره في القراءة والكتابة والعمل.

وفي عام 2023، تشرف بالثقة السامية لحضرة صاحب الجلالة السلطان هيثم بن طارق المعظم - حفظه الله ورعاه - إذ صدر مرسوم سلطاني بتعيينه عضواً في مجلس الدولة بسلطنة عُمان للفترة 2023-2027م. ويمثل هذا التكليف الوطني الرفيع محطة بارزة في مسيرته، يشارك من خلالها في أعمال المجلس، ولا سيما عبر اللجنة الاقتصادية والمالية، مساهماً في دراسة القضايا والسياسات العامة، وتقديم الرؤى الاستراتيجية الداعمة لمسيرة التنمية الوطنية وتعزيز كفاءة الأداء الاقتصادي والمؤسسي.

درس العلوم الدينية والفلسفة في حلقاتها التقليدية، ثم مضى في مسار مهني امتد قرابة ثلاثة عقود في المحاسبة والتدقيق والاستشارات والاستراتيجية والإدارة والتحول المؤسسي. وأمضى أكثر من عقدين في مواقع الشراكة والقيادة داخل بيوت خبرة دولية، وقاد مشروعات في الاستراتيجية والتحول وإعادة الهيكلة والحوكمة في سلطنة عُمان وخارجها.

وإلى جانب دوره الوطني، يقود مجموعة مريت وأكاديمية مريت في المملكة المتحدة، بوصفهما منصتين مهنتين وتعليميتين يشارك من خلالهما خلاصة خبرته مع القيادات والأفراد والمؤسسات، ويسهم في تطوير القدرات الاستراتيجية والإدارية والمهنية. ويحمل عدداً من الاعتمادات المهنية الدولية في المحاسبة والاستشارات والإدارة، من بينها: CPA، CFE، CMC، CMgr.

غير أن هذه الخبرة المهنية لم تكن منفصلة عن انشغاله الفكري؛ فقد رأى أن الروح والاستراتيجية، على ما يبدو بينهما من تباعد، تلتقيان في سؤال واحد: كيف تتحول الغاية إلى طريق، والرؤية إلى فعل، والإنسان من حال إلى حال؟ ومن هنا سعى في كتاباته إلى وصل التأمل بالعمل، والفكرة بأثرها، والرؤية بحركة الإنسان في الحياة.

أسس «مشروع نظرية النشأة الإسلامية» بوصفه مشروعاً فكرياً تفسيرياً داخل الرؤية الإسلامية، يدرس تكوين الإنسان، وحركته الوجودية، ونموه، وسلوكه، ورسالته، ويصل بين التأصيل الفكري والخبرة الإنسانية والتطبيق العملي. وتوزع مؤلفاته بين الرؤية الإسلامية، والإنسان والنمو، والتدبر القرآني، والسرد الأدبي، والإدارة والاستراتيجية.

يكتب عباس آل حميد من موقع الباحث المجتهد، مع التمييز بين النص المقدس والفهم البشري، وبين ما هو أصل ديني وما هو بناء تفسيري قابل للنظر والمراجعة. وتقوم كتابته على وضوح الفكرة، وصدق نسبة القول، واحترام عقل القارئ، والانفتاح على النقد والتصويب.

ويتيح كتبه الإلكترونية المعروضة في مكتبته الرقمية مجاًناً، رغبةً في وصول المعرفة واتساع الحوار حولها. وما يرجوه من القارئ ليس الموافقة السريعة، بل القراءة الصادقة، واختبار الأفكار، وإرسال التصويب حيث يراه؛ فالفكرة هي البتلة، والدليل خادم لها، واللغة طريق.

المكتبة الإلكترونية الرسمية

كتب مشروع نظرية النشأة الإسلامية

الكتب الستة

① «المنظومة الفكرية الإسلامية» – الأساس الرؤيوي وموضع الشرح الكوني.

② «نظرية النشأة الإسلامية» – المتن المرجعي الضابط.

③ «الذات الخالدة» – يتوسع في النفس الإنسانية وتكوّنها ومسارها.

④ «لا حدود» – يقرب القوانين إلى التطبيق ويحاور نظريات النمو المعاصرة.

⑤ «عِش سعيداً» – منفذ التدبر والمعايشة.

⑥ «رحلة كادح» – منفذ التجسيد السرد.

دليل القارئ والمعجم المرجعي

ويتضمن «نظرية النشأة الإسلامية» دليل القارئ إلى المشروع ومعجمه المرجعي؛ فيعرض الأول الخريطة ومسارات القراءة، ويضبط الثاني المصطلحات والإحالات. وهما جزءان من الكتاب المرجعي نفسه، وليساً مجلداً مستقلاً ولا كتاباً سابغاً.

المكتبة الإلكترونية الرسمية

من مشروع نظرية النشأة الإسلامية

يقدم هذا الكتاب الإطار الرؤيوي الشامل لمشروع نظرية النشأة الإسلامية، ويعرض منظومته الفكرية التي تنطلق من التوحيد كأصل للوجود والمعرفة والقيمة، وتفسر الكون والحياة والإنسان ضمن نسق كوني مترابط محكوم بنظام إلهي محكم، ذا غاية ومعنى واتجاه.

ISBN 978-99992-2-557-1



9789999225571